نورالدين حنيف أبوشامة

إضمامةٌ قصصية

أبوشامة نورالدين حنيف

ورطةُ الجِهاتِ النّائمة

إضمامة قصصية

- نورالدين حنيف أبوشامة
- من مواليد مدينة الدارالبيضاء\ المغرب
- عضو في الجمعية الوطنية لصقارة القواسم
- خبير وطني في رياضة الأيكيدو
- مهتمّ بمجال الإبداع و الفنّ التشكيلي
- باحث في التربية و الفكر و الأدب
- لوحة الغلاف من إنجازي بعنوان (انتظار)

***

البريد الالكتروني:
Abouchama24hanif@gmail.com

إهداء:

إلى روحِ زهرة غازي

أمّي الّتي كانت...

و تكون...

و ستكون...

...

العتبة:

يحـــدثُ أن يحكـــيَ الحـــاكي حكايتـــه المنسوخةَ في قلبـهِ القديم و لا يستمع إليهـــا القـــارئ ولـــا يقرؤهـــا الســـامع. ويحـدث أن ينسخها مـن جديـد فـي قلبـه الجديـد فتتحـول الحكايـة إلـى شـريط مـن الغضـب يـزجّ بـالحكي خـارج هـذه الـذات الملعونـــة فـــي تشـــظي الحكمـــة الشخصـية التـي لـا تسـمن المتلقـي و لـا تُغنيـه إلـا لمامـاً، حـين يُصـادِفُ نفسـه فارغـاً فـي محطّـة قطـار يتـأخر عـن موعـده. يتوجّـه المتلقـي إلـى أقـرب كشْـكٍ يـروّج للشـكولاته أكثـر مـن تزْويجـه للـورق، فيبتـاع منـه الكتـابَ، لـا لعمـاره الفكـري ولكـن لبريـق لوحتـه الفنيـة المُغَلّـفَـة لمتاهـات المجهـول. يتأبّطـه

ويتصفّحه ثمّ يقرّر أن يزدرده في لجّاتِ الانتظار. ويحدثُ أن يستكمل هذا القارئ العابر مساحات القصة كلها، لا إعجاباً أو انبهارا، و إنما سهوا بما في يديه من تخطيطِ الهذيان، نسيَ أن يُلقيَ به في دوائر النسيان، لأن المقطورة لم تُتح له محاورة من المحاورات اللذيذة التي عادةً ما يجود بها سياقُ السّفر و زمان الرحلة.

هكذا نقرأ الكتاب الموسوم هنا بالحكي الحنيفيّ، و الذي يظن صاحبه أن ما بين دفّتيهِ قمينٌ بالمتابعة. فيما هو سيلٌ من التدبيج الشخصي الغارف من رؤية ضيقة و قاصرة للماحول في تغوّله على ممكنِ الذوات. و أتساءلُ هنا أيضاً، أنا القارئ المسكين: ما ذنبي أن أتابع هذيان هؤلاء الكتَبَة الذين ينبتون في الساحة الثقافية مثل الفطر في غابة غير استوائية؟ و ما

قــولكم فــي حتميــة القــراءة لنـــدعم المشـروع الثقـافي البيضـاوي والمغربـي و العربـي ولِـمَ لا: الكـوني؟ هـا أنـا أسـيرٌ الـآن حثيثـاً إلــى ذروةِ المنتهــى حــين أشــتغل علــى هــذه الأنــا الضــاغطة والمتواريـة خلـف حُجـب الوصـول. أسـيرٌ و أنــا واثــقٌ أن القــارئ الـآن يســخر مــن هـذا الوبـاء السـديم الموسـوم بالقصّـة. أنـــا الـــآنَ أكتـــبُ القصّـــة، أو تكتبُنـــي القصّــة، لســنا نــدري معــاً مــنِ الفاعــل ومــن المنفعــل... دعنــا مــن هــذا وذاك، وألْــقِ بنــا فــي تخــوم هــذا المحكــي علّنــا نصـطاد بعـض الغـيم فـي أزمنـة المحـل و القحط.

الورطة الأولى
اعتقال

قبل الحدث:

كـان مفـرداً فـي تعـدّد، و متعـدّداً فـي مفـرد. اسـمٌ بـين أسـماء توحّـدتْ فـي الخـروج وتشـعّبتْ فـي النـزوح. و كـانَ المكـانُ بيتـاً نكِـرة بأسـماء مُعرّفَـة. دأبَ ربّهـا، كمـا دأبَـتْ رَبّتُهـا علـى العمـل المكدود حتـى تبْلـغَ الْأسـماءُ مآرِبَهـا. ولـم يكُـنِ الزّمـان إلا ليلـة، وشـمتْ فـي داخلـه

أخاديد غائرة، تجاوز وشمها ذاكرته إلى شحذ بعض تاريخه. لم يدّعِ أنها ذاكرة أسقَمتْ روحه، و لا أنها ألهمتْ إنسانيته. فكل هذا كان وارداً بقوّة. لكنّ كل ما يذكره بإلحاحٍ أنها ذاكرة مرّتْ من هنا. فوق هذا الجسد و تحت هذه الروح. و أخذت ما أخذت و تركت ما تركت، لكنها غذّتْ بعض الجوع في هذا التاريخ.

داخل الحدث:

كانتْ تضاريسُ الجسد تعومُ في البدْء، تمريناً على الاستواء في لجج الصالاتِ الصفراءِ النازِحة من الشرق الآسيوي. وكانَ صاحِبُنا يمضغ الزمانَ في تربيب القصورالبدني تربيباً يعقِلُ الحركة في رياضة الجيدو. و من عمق هذه الصالات يخرج العرقُ إلى مدينة الرباط حيث يطلب النشْفَ داخل

المــدرجات العبقــة بصــنوف المعرفــة.
وبــين هــذا و ذاك، دأب هــذا الجســد علــى معانقــة روحــه داخــل مســاجد المـدينتيْن، يطلـب فيهمـا راحتـه و يسـوّي توازنــه كــي يتلقفــه الشــارع بكــل تناقضــاته وهــو فــي كامــل اســتعداده لمواجهــة المفارقــات و مقارعتهــا بمــا أوتــيَ مــن أدوات. تؤنســه فــي ذلــك جماعــةٌ مــن الشــباب، بــاعوا ذواتهــم لله واحتســبوا أعمــارهم لخدمــة القضــية الربانيـة مرشوشـين بمـاء الوعـد الـإلهي، بجنّـة عرضـها السـماوات و الـأرض، فيهـا مـا لـا عـينٌ رأت و لـا أذنٌ سـمعت و لـا خطـر علـى قلـب بشـر. و فيهـا الحبيـب المجتبـى يمـدّ كفّـه المباركـة، كـي تبـارك نزوحهم إلى هناك...

الحدث:

و ذاتَ فجرٍ صعد الظلامُ إلى غرفته الخاصّة، بعد أن طرق بوابة الدار برعونة لا توصف. كان الظلام يتقمّص ألبسةً سوداء و زرقاء قاتمة. طوّقوا جسده الرخو بأسئلة سريعة و مُدينة، ثم حملوه على أجنحة الخطف و ألقوا به داخل سيّارة. كان معصوب العينيْنِ يحسّ بدبيب العجلات تمسح الإسفلت في تؤدة مقيتة، يبحث فيها الظلامُ عن دورٍ أخرى وغُرفٍ أخرى أشبهُ باللُّقَطِ النادرة، فيما الموصوف بالخطفِ يحفظ الأصوات خارج السيارة لضبط وجهتها. و لكنه لم يكن مخلصا لقرار التعصيب ، لهذا كان بين الفينة والأخرى ينظر خلسةً إلى ما يجري. و يرى السيارة تدلف من الأحياء الشعبية في دوران صوري قصد التمويه. أدرك صاحبنا أنهُ في اتجاه

المعتقل الاحتياطي الكائن في الدرك السفلي من المقاطعة 13. وهو درك مخصص لمعتقلي الرأي كيفما تعددت مشاربهم العقدية والإيديولجية.

التحقيق:

أنزلوه معصوب العينين مصفّد اليدين إلى مكان صامت أشبه بمقبرة، و لو لم يرَ منها إلّا بلاطها بحكم طأطأة الرأس. نفسه أشبه بفؤاد أمّ موسى وأفرغ. أدخلوه إلى ممرّ فارغ أو كاد. تركوه هناك دون عبارة أو امارة أو حتى إشارة. أجلسوه على دكّة خشبية باردة مثل احتقار. ثم غادروا ...
أدرك بحدسه القويّ أنهم إليه أقرب، يراقبون ردود فعله كي يبنوا عليها تحقيقاتهم و مضانّ شكوكهم في أمره حتى يكتمل لاحقاً تقريرُهم عنه بدقّة

متناهية. أدرك أيضا أنهم يمارسون هذا الترك و ذاك الإهمال الممنهج لأنهم يعلمون بحكم خبراتهم الواسعة أن أي معتقل في بداية اعتقاله يُصاب بخوف غريزي يرتفع معه منسوب المتانة إلى حد الانفجار، فيكون همّ المضنون واحدا لا غير، و هو الرغبة العارمة في الإفراغ. و هي فرصة للمحققين كي يجنوا من هذا الوضع المأزوم ما لذّ لهم من الاعترافات.

جرّوه و هم يسبّون ثوابته و والديه بأبشع السباب إلى مكتب التحقيق، معصوب العيون دائما و مصفّد اليدين. أجلسوه على كرسيّ أبشع من بلاطٍ بارد في منطقة سيبيريّة. أعادوا حلقات السبّ و الشتم لدينه و لدنياه، في خطّةٍ ساذجةٍ لإرباكه و حصد ما شاؤوا من اعترافاته. سألوه عن انتمائه السياسي و عن حركته السرية و عن

أسماء أشخاص... و بين السؤال والآخر كان يتلقى ضربة سوط من جلد رقيق وحاد و مؤلم. تصاحبُ الجَلدةَ سبّةٌ مُهينة و مشينة. ثم استغرق تحقيقهم لصاحبنا في الشاذة و الفاذة أكثر من ساعتين، يكررون فيها نفس الأسئلة ونفس المشهد، و صاحبنا ثابت على ردوده لا يتناقض أبدا. و لمّا يئسوا منه ألقوا به في زنزانة تأسنُ داخل جدرها الرطبةِ أربعةُ كائنات مغضوب عليها... و هو كان خامسهم، في شبه كهفٍ بغير كلبٍ و لا وصيد .

امتداد:

تركوه دهراً من الزمن أو بعض الدّهر في زنزانةٍ ضيقة مع أربعةٍ ممن رسى عليهم قرار التعصيب و الزيارة الفجرية المباغتة، و الحبس الاحتياطي

إلى حينٍ غير مسمّى. كل معتقل له حق في لحافيْنِ رماديين واحد فراش وثانٍ غطاءٌ لا يقيانِ من برد أو قرّ. أعفتْ إدارة المعتقل المعتقلين من الأصفاد فيما أبقت على التعصيب لغاية في نفسها. لم يلتزم المعتقلون بوضع العصابة على العين إلا في حضور الحرس والمراقبين، و ما تبقى من عمر اليوم فيكون وضع العصابة أسفل الذقن كأنه القلادةُ من قماش أو كأنه ربطة عنق فارس من نجوم الويسترن... في هذه لفترة الطويلة لم تسمح الإدارة للمعتقلين إلا باستحمامٍ واحد يتيم. كان ماءً ساخناً وقطعة من صابون تتملص من قبضة اليد و تنزلق بعيدا عن المستحِم. وقد حدث لصاحبنا أن انزلقت منه قطعة الصابون فاستشاط الحارس غضبا لما أطل على المستحِم من كوةٍ صغيرة

على متنِ البابِ، و لم يجده في إطار زاوية نظره ظنّاً أنه فرّ من الحمام أو ما شابه ... كادت روحه أن تزهق منه لولا أن اكتشف حقيقة الوضع بسرعة. فقدّر الحدث في غضب و سبٍّ وشتم.

و حدث أن نوديَ بعد ذلك بإسبوع على صاحبنا كي يستحمّ للمرة الثانية. رجع إلى الزنزانة بوجه مشرق تدور فيه دماءُ الحياة. قال لإخوته في السجن:

سيُفرجُ عليّ بعد حين قصير. قال أحدهم: لا تحلم... قال ثانيهم: و ما دليلك؟... قال: أنتظرتُ أن يُنادى عليكم للاستحمام، و لمّا لم تفعل الإدارة وحظيتُ وحدي بهذا الشرف المائي فأنا أكيد محظوظ بالإفراج. قال ثالثهم: طوبى لك و العاقبة لنا.

في الغد، و بعد العصر، نودي على صاحبنا، أدخلوه مكتبا ضيقا عند بوابة الخروج من بطن معتقل درب مولاي

الشـريف، أرغمـوه علـى توقيـع وثيقـة دون أن يقرأهـا... تلكـأ فـي التوقيـع حتـى قـرأ بعضـها. لـم يكـن معتقلاً سياسـياً فـي كتّاشـاتهم، كـان صـبيّاً فوضـوياً شـارك فـي الشـغب الرياضـي. أعـادوا إليـه ملابسـه، ارتـداها بسـرعة أسـطورية ثـم غـرق فـي شـمس الله يمتصـه الشـارع فـي هرولـة خرافيـة إلـى بيـتهم الـذي يحتضن تاريخا جديدا ...

الورطة الثانية
زنبقةٌ سوداء

قَــال الشّــيخُ الْمُــدثَّرُ فــي بُــرْدةٍ ســوداءَ، بعــدَ أن رمَــى فــي فنْجــانِ بُنِّــهِ قطعــةَ سكّرٍ واحدَة:
كُــلُّ الْمَسَــاكِينِ فِــي هَــذا الْبَلَــدِ الْمُبَــارَكِ يُعَشِّــشُ فِــي عُيُــونِهمْ طَــائِرٌ، تَشْــتَهِيهِ الْكَمَــــائِنُ وَ الْمَـــــدَافِنُ، وَ لَـــــا تَشِـــــتَهِيهِ تَقَاسِيمُ الْحَلْوَى الشَّقْرَاء.

قَــــال أيضـــــاً بعْـــــدَ أنِ ارْتشَـــــفَ مـــــرارَةَ الوصْـفِ الـأوّل: فِـي عَـيْنِ بَدَوِيّـةِ الْجَبَـلِ يَسْـكُنُ طِفْلـانِ، وَاحِـدٌ تَعْجِنُـهُ تُراباً، يَثْقُـبُ الْـأَرْضَ الْبِدَائِيّــةَ فِــي عُنْفُــوَانِ الشَّــبَق. وَثَــانٍ تَبْرِيــهِ قَلَمــاً يَحْفَــظُ فِــي صَــدْرِهِ الْعَـارِي مَـا نَسِـيَهُ التُّـرَاب. وَ فِـي الْمَسَـاءِ، يُنْجِـبُ الْـاِبْنُ أَبَـاهُ فِـي فَرْحَـةِ كَـأسِ شَـايٍ وَ كِسْــرَةِ خُبْــزٍ دَهَنَتْهَــا الْبَدَوِيّــةُ بِسَــمْنٍ كَفَّيْنِ قُدَّتا مِنْ جَلَدٍ وَ حَنِين.

قالَ ثمّ سكَت:
الْعَــرَقُ فِــي الْأَيَــادِي الْمَشْــقُوقَةِ أَشْــجَارٌ يَابِسَــةٌ، كَانَــتْ تُغَنِّــي فِــي أَرْدِيّــةِ اللَّيْــلِ ثِمَارَهَــا الْمَسْـرُوقَة. وَ فِــي النَّهَــارِ صَــلَبُوا قَامَاتِهَــا الْفَارِهَــةِ عَلــى مَقَاصِــلِ الْوَجَــع الصَّــــامِت فِــــي طَلَـــــاءِ الْجِــــدَارَاتِ الْمَنْسِــيّة... الْأَسْــمَاءُ عَلــــى الْمَحَجَّـــاتِ وَالزُّقَاقَـاتِ عَلَامَـاتُ ذَاكِـرَةٍ اقْتَلَعُوهَـا مِـنْ مُتُونِ الْعَرَقِ.

ســـادَ الْمكـــانَ صـــمْتٌ مَهِيـــبٌ ألْجَـــم المُتحلّقِـــين حـــولَ مِقصـــلةِ الحسْـــوِ الأسـود، المعتـرفِ بعضُـه بثقافـة السـكَّر والـرافضِ بعضُـه لهـا . خـرجَ عـنْ سُـكوتِهِ ليسْتدرِك:

آهْ !... كــدْتُ أنْســى: عَــينُ الْفَلّــاحِ شُــعاعٌ وَمَطَـر، قَامَتُـهُ قَـوْسٌ مَشْـدُودٌ إِلَـى حَجَـر. اِمْرَأَتُــهُ أنهــارٌ مُفْعَمــةٌ بِالنَّشِــيد. نَسْــلُهُ مَنَــاقِيرُ، مَنَعُوهَــا أَنْ تَبْلُــغَ سِــنَّ الْقَضِــمِ، أَفْتَــوا فِــي رَوْعِهَــا أنْ حَــرَامٌ هِــيَ فَرْحَــةُ الْعِيد...

قـالَ مُحدّثُـهُ و هـو فـي الـآنِ ذاتِـهِ مُرِيـدُه، متكوِّمـــاً فـــي بذلـــةٍ عصـــرِيةٍ زرقـــاءَ أفصَــحتْ شــديداً عــن كتلتــهِ اللحمِيــة الموغِلَــة فــي السّــمنة، بعــدَ أنْ طــوَى جرِيدة اليومِ الثّامِنِ بيْن يديْه:

كــم يكفِينِــي مــن الوقْــتِ لأصــعدَ قمّــة الكلــامِ فــيكم؟ و أنــا أرغَــبُ فــي القــولِ فتحاصِـرُني حِكْمَـةُ المسـاكِين. أَراضِـينَا لَـا

تُنْجِـبُ سِـوى نَبْتـاتِ الْمَـوت، وسـوى صَـهِيل، لـا يَنْمُـو فِيـهِ إِلَّـا جُمُـوحُ الْحُفَـر. كـذا صـاغَتْ حِكْمَـةُ السّـنابِل رأيَهـا فـي المشْـكِلَة وَ هِـيَ تُعَـرِّجُ فِـي أَشْـواقِ جَلالِ الْغَـيْمِ ... كُلّمـا دَاخَـتْ عَـنِ التُّـرْبِ شَـقائِقُ النُّعْمـانِ، وَ أوْراقُ النّعْنـاع، كُلَّمـا رَكَضَـتِ الْمَنـازِلُ ضِـدّ رَغْبَـةِ الـرّيح فِـي حَصـائِدِ الْأشْـلاء ... وَحْـدَهُ وَشْـمُ الْمـاءِ يُـدْرِكُ مَوْتَهـا بِغَيْـرِ بَـراهِين، وَ بِغَيْـرِ فَضِـيحَةٍ لِأَناشِـيدِ الـرَّحِمِ الْمَوْجُـوعِ فِـي مَـديحِ السَّراب.

قـالَ عاشِـقٌ يلمّـهُ الجمـعُ معهُمـا و عيْنُـهُ علـى اليـومِ الثّـامِن، تسـكُنُه رغْبَـةٌ قدِيمـةٌ في مداعَبَةِ جناحِ الكلماتِ المُتقاطِعة:

هَـذِهِ الـرِّيحُ الْغَرِيبَـةُ، تَنْجُـرُ رِيـشَ الْحَمامَـة، كَـيْ لَـا تُحَلِّـقَ فِـي انْتِشَـاءِ الْغَـيْمِ، يَراعـاً يَلْـبَسُ الضَّـوْءَ، وَ يَمْشِـي عَلـى صَـفِيحِ النَّهْـر... وَلَمّـا خَطَفَـتِ الْحَمامَـةُ رَبِيعَهـا السّـادِسَ بَعْـدَ الْعَقْـدِ

الْعَاشِـرِ مِـنْ أَزْمِنَـةِ الْخَـوْفِ، دَثَّرُوها بِـوَرَقٍ ذَابِلٍ ثُمَّ فَتَحُوا أمامَها بابَ التَّكاثُر .

أمّـا أنـا، و لـمْ أكـنْ بعيـداً عـن أصـداءِ الحلقَـة، فقـد صـدّعَني هؤلـاء المُنْتشـُـونَ فـي أرائِــكِ الوصــفِ، يشخّصُــونَ ويصِــفون. و يكــادُ الْكلــامُ مــنهمُ أنْ يسـخطَ علـى الْكلـام. كانــتْ عقِيـراتُهم مُرْتفِعــة، و كـأنّني بهـم يَرومُـونَ تسْـمِيع الحُضـورِ شـجْبَهمُ الحرِيـريّ... أصـخْتُ السّـمع تأهّبـاً لمغـادَرةِ الْمقْهـى إذا مـا شـطّ هؤلـاءِ فـي مسلْسَـل رسْـم لوحـاتِ الكآبَة بمجازاتٍ باذِخَةٍ في التّجرِيد.

سـمع الشـيخُ عبـارَتِي الـأخيرَة، مـع العلْـمِ أنني همسـتُ بهـا لنفْسِـي، و لولـا أنّنـي علـى يقـينٍ شـديد بـأنني الوحيـد الـذي سـمع مقـالتي لقلـتُ إن فـي الـأمرِ سِـرّاً . وقـد قلـتُ إنّ فـي الـأمر سـرّا... فهـا شـكّي يتبخّـرُ عنـدما ابتسـم لـي هـذا الشـيخ فـي مكـرٍ مُعلّـم. وأدركـتُ بعـد حـين قصـيرة

أنّــــهُ لـــم يسْتسِـــغْ رفْضِـــي الواصِـــف لحضُـــورِهم. بـــاغَتَنِي و أنـــا اللّـــا مُنتمي لجلْســتِهِم بدعوتِــهِ الهادِئــة كــيْ ألْتحــقَ بمائِدتهِم الدّسِمة بالمعْرِفَة والكلام.
اســتَجبْتُ خشــيَةَ أن يشْــمَلَنِي الشّـــيخُ بلمــزِهِ وغمْــزه. و أصــبحتُ فــي لمــحِ البصـــرِ رابعَهُـــم. و قـــد رحّبُـــوا بـــي بابتِساماتٍ اختَزَنتْ أكثرَ من مَكْر.
كـانَ المكـانُ عبـارَة عـنْ فضـاءٍ واسِـعٍ فـي حــيٍّ شــعبِيّ، يتّســعُ لكــلّ الــراغِبينَ فــي الفتْـكِ بجسَـدِ الْوقـتِ حـينَ الوقْـتُ يُصـبحُ أرْخــص مــادّة و أوفَرَهــا و أوجَــدها فــي ســوقِ المُمتلَكــات. و قــد وســمَ صــاحِبُ الْمقْهــى مقْهــاهُ باســمٍ عجَمِــيّ لــا يتنــاغَمُ والمحِـــيطَ الاجتمـــاعيّ الـــذي يحـــيطُ بها.الزنبقــة الســوداء . la tulipe) (noire ولعــلّ صــاحِبَها عــاشَ مُغْترِبــاً بعـــضَ أزْمِنَتِـــه بالْبِلـــاد المنْخفِضـــة، أو لعلّـه حظـيَ بـبعضِ النّصـيبِ مـن ثقافـةِ

الرّوايـةِ الغربيـة، أو لعـلّ الـأمر لـا يغْـدو أن يكـونَ محـضَ صُـدفَة. فمـا أكثـرَ الصّـدف الّتـي تحـوّل المجْـرى عـن طريقِـه الطّبيعـي، إلـى مجـارٍ أخـرى، و مـا أكثَرَهـا و هـيَ تصـنعُ تمثّلاتِنـا المغْلوطـة خـارجَ نيّـاتِ المـاء فـي قـراره الـأول بالانسياب...

قـالَ الشّـيخُ مُرطِّبـاً أجـواءَ المجلِـس بعـدما اكتشـفَ تـوتّرِي الزائِـد عـن المظنـون: مرحبـاً بـكَ فـي هـذيانِنا الّـذي نرجـوه يكتمـلُ بحضـورِك المُضِـيف والمُثْرِي.

ركّـز الحاضـرون نظـراتِهم علـى شخصِـي المُقحَـم فـي تنـاغُمهم. و كـأنّني بـابٌ يُخلِّصُـهُم مـن التّشـابُهِ و الشّـبَه الّـذي طـال محـاوراتهم. قـالوا جميعـاً و بصـوتٍ واحـدٍ وبنبـرَة هـيَ أقْـربُ إلـى العتـابِ منهـا إلـى السّـؤال و المسـاءلة: لقـدْ سـمعْنا وصـفكَ إيّانـا بالتّجرِيـد، فهـل

توضّحُ لنا أينَ و متى وكيف جرّدْنا ولمْ نُشَيّئْ؟ و كيفَ شطَحْنا في سماء الْخيال و لم نُنِخْ أرضاً و أديما؟
هنا و بالذّاتِ و تحديداً... سُقِط في يدي، وارتفَع منسوبُ عجبِي واستغْرابِي من حالِهم. فكيف أستسيغُ سماعَهم مقالتِي وأنا الّذي حدّثْتُني سرّاً دون أن أحرك شفتيّ. كيفَ أفهمُ توغّلهم في خاصّتِي؟ كيف أستوعِبُ علمَهُم بنيّتي؟ لم أشأ أن يُدْرِكوا حيرتِي، فقلتُ مرْتبِكاً أشدّ الارتباك:

الأمر في حقيقَتِهِ...

قاطَعَني الشّيخُ ذكاءً منهُ و تقديراً لحال التوتّر الذي أنا فيه... قال: أطلُبْ مشروبكَ أولاً من النّادل قبل الحديث والمحاورة. قلتُ: قدْ استهْلكتُ قهوَتي توّاً و أشكركم. قال: قهوةٌ عنْ قهوةٍ

تختلِــف، و المــرءُ لــا يعــومُ فــي الــبنّ مــرّتين. لاحظــتُ إصــرارَ نظرتِــه الحــادّة، فطلبـتُ أخـرى، ثـمّ كانـتْ بـين يـديّ... قـال ثـالثُهمْ: هـاتِ مـا عِنـدك. و قـد كانـتْ هـذه الــ(هات) أشــدّ مضــاءً مــن خنجــر، إذ تســتبطِنُ تحــدّياً ملحوظــاً لِــذي لمــحٍ ورؤيــا. اســتجمعتُ قــوايَ الوجدانيــة وقلتُ :

وصـفتُم العـالمَ القـرويّ، سـواءٌ مـا تعلّـق بنسـائه أو رجالــهِ أو أبنائــهِ أو بناتــهِ فــي تلويحـاتٍ مأسـاويةٍ موغِلـة فـي الوصـفِ المُنــــزاحِ و التشــــخيصِ البلــــاغِي والشّــــاعِرِية البعيــــدة و الدلالــــة الغامِضـة... و نحـنُ لسـنا فـي حاجـةٍ لهـذا التحْلِيــقِ النّــاعِمِ والْحرِيــريّ بالقضــايا الشـائكة و الّتــي تمـسّ المجتمـع فــي صـميمِ وجـوده ومسـتقْبَلِه، بقـدرِ مـا نحـنُ فــي حاجــةٍ إلــى البــدائل الْمُمكِنــة والْقرِيبــة مــن تخـومِ الـأجرأة و التّفعيـل.

همٌّنا قد تجاوزَ البكاءَ إلى التّغيير، و قد حانَ وقتٌ استبدالِ لغةِ الهروبِ والنكوصية بِلغةِ الانخِراط والمواجَهَة... سادَ صمتٌ غريبٌ خيّمَ على فضاء الزنبقة السوداء، فيما تحَوّلت كل الوجوهِ إلى مجلِسِنا ترشُـقُه بوابِلٍ من النظرِ والانتظار، و تترقّبُ ردّاتِ فعل الشيخِ و مُرِيديهِ، وتنتظِرُ بشغفٍ عارِمٍ تفضَحُهُ نظراتُهُم العاشقة لمعرِفةِ النّهاية، و كأنّهمْ أعضاءُ فرِيقٍ لِكرة القدمِ يستعْجلونَ ضرْبَةَ جزاءٍ حاسمَة تفصل فريقَهم عن الفوزِ بالكأس أو إهدارِهِ قابَ قوسيْنِ أو أدنى... و حتّى النادل تجمّدَ في موْقِفِه حبّاً في اجتِناءِ عسلِ هذه اللحظة. ثمّ تحوّل الفضاءُ في سمْتِهِ و صمتِه و خشوعِهِ إلى أجواءِ مناظرةٍ يقْتلِعُها الوصفُ من أزْمِنَةٍ غابِرةٍ في تراثٍ عريق.

لـم يحتكـرِ الشـيخُ شـرفَ الـردّ بقـدر مـا تـركَ الحبْـلَ علـى غـاربِ مريديـه، فـانبرى العاشـق لهمـا إلـى القـول: هـذا حـديثٌ السيّاسـيّ الحـالِم. و قـال المريـدُ السّـمين: هـذا حـديث الثـورِي المكتئِـب فـي لبـوسِ الحركـيّ. قـال الشـيخُ: هـذا حديثٌ من لا حَديثَ له...

أدركـتُ حجـمَ الورْطـةِ الّتـي وضـعتْ ذاتِـي فـي شـباكِها، خاصّـةً و أنّ الحاضـرين ارْتطَـم تـوقّعُهم بجـدارٍ أصـمّ و قـد كـانوا ينتظـرونَ منّـي الغلبَـةَ بحكـمِ تجـانسِ طرْحِـي مـع انتِظـاراتهم، و بحكـمِ بسـاطَةِ عرْضِـي الـذي لـم يشـطّ فـي التحليـق والتجْنـيح البلاغييْن. كنـتُ قرِيبـاً مـن وجـدانِهم و ربّمـا كنـتُ الشّـارحَ الأفضـلَ لانتظـاراتهم. فيمـا الشـيخُ ومرِيـدوه سـكنوا فـي قلعـةٍ عاجيـةٍ بعيـدة... قـرّرتُ بعـد ذلـك مضـاعفَةَ الهجـوم، فلـيس لـديّ مـا أخسـره مقارَنـةً

بهيبـةِ الشـيخِ الّـذي ورّط ذاتَـه فـي جـدل المقارنَــة و المُفاضـلَة مـع كـائنٍ مغمـورٍ و عـابرٍ و نكـرة مثلِـي أنـا. قلـتُ فـي يقـينِ المحاورِ المالِكِ لشرْطِ اليقِين:
لســتُ سياســياً كمــا وصــفتم، و لســتُ ثوريــاً كمــا شخّصــتم، و لســت ســديماً أحفـرُ فـي ضـبابِ الكلامِ. أنـا مجـرّدُ مُكْتـوٍ بشــررِ التهمــيشِ الــذي يطــالُ الباديــةَ والْحاضِـرةَ معــاً. و اكْتِـوائِي لـم يُلْـقِ بـي فــي أتــونِ المســافة العاجيــة، و لــم يحــوّلْنِي إلــى يــائسٍ يطــرقُ أبــوابَ الأحلام فـي سـذاجةِ الراغِـبِ فـي التغييـر و هــو مسـتلْقٍ علـى أريكـةٍ مخمليـة. أنـا وبكـلّ بسـاطةٍ مـواطِنٌ لا أعـيشُ خـارِج المشهد.
أحسســتُ أن فضــاءَ المقهــى صــفّقَ كاملــاً بــأكفّ صــامتة لعرضِـي الثّاقِــب وهـــشّ لهجـــومي المـــوزون و العـــابِرِ لوجــدانِ الحضــور بلــا اســتثْناء. فيمــا

النّـادلُ يبـينُ عـنْ فـمٍ افتـرّ مسـروراً حتّـى بـدتْ نواجـده... اسـتوى الشـيخُ فـي جلسـتِه وكأنّـه يُـزيحُ عـن جسـدِهِ ثقْلاً زائـداً لـا مسـوّغَ لترْكِـهِ يقـضّ راحتـه. قـال فـي حكمـةٍ و سـمتٍ مشـهُوديْنِ لمثلِـه فـي مقـامٍ عـالٍ و وقـور: أنـت يـا ولـدي تـذكّرُني بشَـبابِي حيـثُ كـان شِـبابِي أشـدّ اشْـتِعالاً و أُوارا. و لسـتُ ألومـُك علـى هـذا أو أعاتِـب، بقـدرِ مـا أريـدُ أن أوجّهـكَ إلـى بـابٍ لـا تلتفِتـونَ إليـه أنـتم معشـرَ المثقّفـين، ألـا وهـو بـابُ الرّضـا بالقـدر. فـدعِ المقـادير تجـرِي بمـا شـاءَتْ و نـمْ علـى جنـبِ الرّاحـةِ. فالّـذي خلـق القريـةَ لـا ينسَـى القريـة وأهلَهـا. رُفِعـتِ الجلسَـةُ يـا ولـدي بعـدما طوِيـتِ الصّحفُ وجفّـتِ الْأقْلام.

كـانَ الشـيخُ يـتكلّمُ مـن زاويـةِ اليقـينِ. فيمـا مريـدوه فضّـلوا الصـمتَ الملغـومَ بـألف رغبـةٍ فـي الهجـوم. و ربّمـا كانـتِ

الإشـارةُ مـن شـيخهِم أن ينْهُـوا المحفـلَ قبـلَ أن يسـتفْحِل. و قـد كـانَ هـذا السـياقُ السّـانِحُ فرصـةً لـي كـيْ أكمِـلَ أطروحَتـي و أنـا أعلـمُ أن أحـدهم لـن يجـرؤَ علـى مقـاطعَتي حفاظـاً علـى سـمتِهم ووقـارِهم. قلـت فـي تعقّـل واضـح: سـيدي و أسـيادي، و أنـتم العـارِفون والعـارف لـا يُعـرّف... إن المسـألة لـا تعـدو أن تكـون تارِيخـاً يتكـرّر، سـواءٌ فـي مسـارِ حضـارتنا العربيـة والإسـلامية، أو فـي مسـارِ حضـارة الـآخر. الـأمر موكـولٌ لفكـرةِ التّـدافُعِ لـا لفكـرةِ التسْـلِيم. و التّـدافعُ هنـا فـرضُ عـين لـا فـرض كفايـة. و الكـلّ، وأقصـدُ أطيـاف المجتمـع الفاعلـة و غيـر الفاعلـة مطالَبَـةٌ بالفعـل و الـانخراط والتـأثير. و أداء الواجـب هنـا واجـبٌ، سـواءٌ تعلّـق الـأمر بـالفرد أم بالجماعـة، و سـواءٌ ارتـبط البـديل بالـأحزاب أم بالجمعيـات

والهيئـــــات المدنيـــــة أم بالمؤسســــــات المالكة للقدرة على صناعة القرار...
قــامَ الشــيخُ فــي هــدوءِ الــريحِ الهادئــة والحاملــة لمشـروع العصـف الشّـديد، ثـم قــام معــه مرِيــدوهُ فــي انســجام كامــلٍ يشـــي بالسّـــمتِ المضـــغوطِ عليـــه. اســتأذنوا ثــمّ غــادروا المقهــى تتقــدّمهم بــردةٌ ســوداءُ ســقطتْ منْهــا قبــل الــدلفِ إلــى الخــارِج زنبَقَــةٌ أشــدّ ســوادا. ســارعتُ إلى التِقاطها، ثمّ دسستُها في ذاكرتي.
التَفــتُّ إلــى الحاضِـرِين فـإذا أعيـنُهم التــي كانــت تخترِقُنــي لــم تعــد تفعــل. كــل مــا أذكــرهُ مــن هــذا الحــادِث أن كــلّ مجلــسٍ فــي فضــاء المقهــى عــاد إلــى شــأنِهِ الخــاص و بــدا كــأن شــيئاً لــم يحــدث. وعــوضَ البخــورِ المعبــوقِ الّــذي كــان يخيّمُ علـى المكانِ، خيّمَ دخانٌ آخـرُ تنفثـه سـجائرُ المـدخّنين فـي خلـيطٍ غريـبٍ مـن أنفاسٍ غريبة.

الورطة الثالثة
رصاصٌ و سكّر

الفصل الأخير:

من أين يأتيك هذا الضوء ؟
وأنا أبحث عن إمكانية للإجابة عن هذا السؤال المخنّث، توّجتُ رأسي بأكاليل من فراغ، كلّ فراغ وردة، وكلّ وردة على رأسها شوكٌ بارد مثل مسمار. لم يتقبّل صديقي الواضح هذه الفلسفة

الغابرة في أزمنة الكلام. لأنه وبكل بساطة تربّى على عشق الضوء
نعم... وهذا جميل. فكلانا يسأل عن الضوء. ففيم الغرابة والسؤال إذا كانا ماسخينِ لجلال الجلسة؟
كان صديقي مفعما بالبساطة حتى النخاع، ولم تكن تغويه النهارات المختلفة ولا الليالي الغامضة. كان أبسط من حتى في مواقع النحويين العرب. كان لا يمتلك من الدنيا إلا الغاية، وكان في ذاته غاية. ولقد سقط ذات زمن في روعه أن الغاية التي لا تأتي من صلب النار لا تستحق التسمية.
عاود السؤالَ، لكن في حيرة جديدة، لا من صمتي وعزوفي ولكن من رنين السؤال في جوفه. كان السؤال فعلا شكلاً جميلا من المناسبة لسد الفراغ القائم جبلاً بيني وبيني. أما صديقي

فقد نفيتُه مؤقتاً في جلال الصمت والتفكير النقي في ماضيه الغابر.
فكرتُ في الإجابة، فمنعني من ذلك الضوء نفسه. ذلك أن الضوء مادة.
قال صاحبي: الضوء ليس مادة، لأنه غير قابل للقبض. و اختلفنا، واستمر الخلاف دهرا حتى تمّ القبض على بعض الضوء في صباحات ماكرة تواطأت مع الصمت الملغوم بشتى المباغتات. منها مباغتة الضوء.
وليلة القبض على الضوء كان صاحبي مهتما بارتكاب الهذيان. جريرة عشق يختزلها لصباح آتٍ وقريب. ساعتها كان يرتّق سرواله الأزرق الذي خدش في أسفله مسمارٌ لعين في زحامٍ ألعن. كان يحب ذلك السروال. وإمكانية تغييره بآخر كانت فكرة تراوده ويطردها، حبّا في ذاك اللون. وقبل أن يجرّبه أمام المرآة، كواهُ كيّاً

دقيقاً وكأنه كان على موعد عسليّ. خلع سرواله الأزرق، مدّده على السرير الفارغ، ثمّ تمدد هو على سرير نومه في انتظار الضوء.
أما أنا، فقد كنتُ أتابع من هنا، لحظة انقشاع أول شعاع على هذا الساذج النائم صحبة سرواله الأزرق، لأرى كم هو عابث هذا الصباح غير المكتمل بورد الفرحة. كنت أنا هنا، من هنا، أتابع ذاك الزمن الغابر. كنت أتابع رحلة الليل المتوجة بالصراخ يهرب إلى داخل الورد، ويتمدد فيه نسغا غريب السريان. وكنتُ أطمع في انسياب النهر ماء وطميا وحجرا وغثاء... كنت أطمع في الجريان دون توقف حتى يُسمى النهر نهرا، دون عقابيل ودون تعثر. كنتُ أجد في الحكي بواسطة السؤال متعة، لكنها كانت متعة غير مكتملة لأن الإجابات كانت متمردة.

قد تقولُ، وأنت صاحبي الساكن في الرواق المجاور لروحي الدخانية، ربّ نهر لا ينساب . قلتُ نعم، فقط إذا كان الانسياب مشروطا بالصمت. لم أفهم كلامه، ولم أفهم كلامي. فكلانا كان نهرا، لكنه لا ينساب.

قال ثالثنا، وهو يمتلك عينا مهرولة في اتجاه المعنى : كم سفسطة تريحون على كفّ النهار والليل ؟ قال صاحبي الكلاسيكي: وهل نحن متعددون ؟ قلتُ وأنا الواحد في العدد، وأنا العدد في الواحد: إنها تجلياتٌ و كفى. قال ثالثنا: ولقد زدْتَها غموضا. ثم سكت .

لا يعيينا ونحن نحاور الصمت التاريخي الفاتك إلا شيء واحد، هو النكوص المجاني عن الكتابة. نعم. الكتابة، وهي التاريخ المؤجل دائما لحاجة في نفسي ونفسك ونفسه الثالثة والرابعة

والـأخيرة. لـم أكُ راغبـا فـي الكتابـة لأنهـا كمائن.
قـال صـاحبي وقـد زاغ صـبره عـن جـادة الصـواب... دعونـا مـن هـذا الـآن. وقولـا لـــي، أيـــن نحـــنُ؟ حـــذار أن تجيبـــاني بـالغموض النـوعي الفاتـك بالنهـار. أريـد إجابــة فقــط ... إجابــة واحــدة، ومكانيــة.
قلتُ: نحن في المقهى.
أحسســت بصـاحبي قـد ارتـاح وكأنـه أزاح عــن كاهلــه صــخرة قادمــة مــن كتــاب فلســـفي. ولـــأول مـــرّة رأيتُـــهُ يرتشـــف فنجــان قهوتــه وهــو مغمــض العينــين يسـتدرج لـذّتها الهاربـة مـن شـفتيه قبـل اليـوم. قـال لـي بعـدها بيـومين أو أكثـر : كنـــت أحتســـي فنـــاجيني فـــي عنـــاوين العــادة. قلــت ومــا الفــرق الـآن؟ قــال: الفــرق بــين الحسْـوتين هــو الفــرق بــين قــراءة خبــر عــابرٍ فــي جريــدة قديمــة، وقــراءة قصــيدة ضــوئية. قلنـــا: الله الله

على لسانك المشبّه، إنك تذكّرنا ببلاغة الجمال وجمال البلاغة. قال: دعونا من تشبيهاتكم وشبهاتكم. لنصف الآن شكلنا الآبق من قبضة المعنى.
قلتُ : أنا خمسينيّ أطل على عتبات الشباب
قال صاحبي : أنا عشريني أحمل فوق رأسي خبزا
قال ثالثنا: أنا لا أقبض على شكل الزمن لأن الزمن منفلت، ودوري هنا لا يقف عند حدود الوصف. أنا عميق فوق الوصف وفوق الحكي وفوق التحديد. وقد أوصاني بعض العاملين على حماية الضوء أن أقف محايدا... والتصريح بالسن موقف يخرج صاحبه من الحياد .
قلتُ: إذن لا تدع لنا كلاماً خارج الانهمار، وما تبقّى من حياد الكلام فلك أنت وحدك. فهم قصدي

واستوعبه جليل الاستيعاب، ثم فكّر وقدّر ثمّ لم يدبر، بل قرّر ... أما صاحبي فلاذ بصمته الموجع، لأنه سيكون هوَ مادة الحكي .

لنبدأ الآن ...

من يتكلمْ ؟

أنَا.

بل أنا.

لا ... بل أنا.

ياهْ !... كم أنتم ساذجون. وتنسون بسرعة الضوء أدواركم . لسنا ساذجين، ولكننا عامرون حتى الثمالة ونحب أن نبدأ. ولقد بدأنا فجرَ القبض على المدعو (عامر)

ومن يكون هذا ال (عامر) ؟ ...

كان رقماً في سلسلة من شعاعات الضوء، معجباً بما فيه كسائر المعجبين بالانتقال. وكان الإعجاب سمة فاعلة في تحولاته الماضية،

والباحثة عن شكل لأصابعه العاشقة للفوضى. وأول الفوضى كان قلم رصاصٍ مزهوّاً بعذريّة القراطيس. وللقراطيس شكل العوالم المغرية بالدخول لبناء أبجديات حياة لا تقبض عليها الأيدي المشقوقة الآتية من معامل السكّر. وكان السكر حلوا في شفاه الزمن ولم يك في شفاهنا أحلى. كانَ عرقا لرجل مثل خيزران يتدثّر دائما في اللون الأزرق، ويمضي في جسد الأيام كما تمضي الأيام في جسده، تقضم منه كي تطعمنا نحن في أعشاش القطن اللطيف.

قال الخمسيني: وما العلاقة بين قلم الرصاص والسكر ؟

لم يكُ سؤالاً خاويا، لأن الولد العشريني فقه أشد الفقه لون الحكي ولون المعاناة ولون الصراخ. وقبل أن يرتشف الرشفة الأولى من فنجان

قهوته المرّة اللذيذة، أحس بالمقهي تتفرج كلّها على صورة الرصاص والسكر، لهذا خفض الحكي من صوته وهو يبتسم في مكر جميل .

احْكِ أنت هذه المرة، فمجرد التفكير في تلاوة الزمن يشعرني بالرغبة في الغثيان. احكِ ولا تلتفتْ. احك وأنت في المقهى تمدّ رجلاً خارج المائدة المستديرة كي تنفّس عن تشنّج العضلات القابعة في ساقين ممتلئتين بالركض. لم أكن أركض، وكنتُ أتابع ركض أبي الأزرق. قلمي الرصاص كان يركض معه، يوازي نشاطه العائم في ظلّين، ظل المحطّة الملعونة وهي تعلن عن قدوم الحافلة الزرقاء، وظلّ السكّر الذاهب الذائب قوالبَ فاتكة بين العين والعين .

أذكر كم مرّة جلب لي أبي بعض الأوراق الخارجية الزرقاء والباطنية

البيضاء التي كان عمال الشركة الكبيرة يلفون فيها قوالب السكر. كنت أحتفظ بالبيضاء فقط، أحولها إلى صفائح مرسمية تفي بالحاجة كي أخطّ على بكاراتها عنفوان الفتى العشريني. أبدع على صفيحها لوحات كثيرة بالأبيض والأسود فقط، حيث قلم الرصاص يختزل كل الألوان في واحد. لعلها الحاجة تحوّل الكائن إلى ممكنات وتحيل الأسود إلى شبكة من الألوان الكامنة. والركض كان عنوان هذه اللوحات الصبيانية الباحثة عن ظل لها في عالم الفن المفتوح فقط على مسابقات يتيمة تحركها برامج غامضة تبثّها الإذاعة الوطنية. وكم بعث الفتى في عقده الثاني من لوحات عبر البريد إلى " دار البريهي " التي كانت في تمثلاته البريئة داراً عامرة بالنجاحات فقط. وفي سذاجة عفوية كان يصدق،

كان يصدق حتى ولو لم ترد هذه الدار على رسائله، ولو بجواب واحد يتيم. وكانت لوحاته تموت في هذه الدار، أو في الطريق إلى هذه الدار، لأنه لم يكن يملك منها إلا تلكم الأصول الوحيدة . ومع ذلك كبرت في وجدانه صورة الفتي وهو يلج مدرسة الفنون الجميلة برأس مرفوعة بعد الحصول على شهادة البكالوريا. ولما حصل على الشهادة كان الذي كان وتبخرت الدار والمدرسة معاً في وعي جديد عنوانه الوحيد هو التّيه والأسئلة الكبيرة والأكبر من رأسه الصغير.

لِمَ قطعتَ حبل الحكي وقد أخذ منّا كل المآخذ ؟

أظن هذه الجلسة في هذه المقهى النائية مثار حديث ذي شجون. والشجن طويل الحبال لهذا أريد أن

أستريح فقط لآخذ نفساً واحدا من سيجارة مفترضة .

وهل تشرب السجائر؟ لم يكُ في علمي إلا العكس .

أنا أشرب السجائر بطريقتي الخاصة، أفترضها دخانا سديميا يسافر فوق وجهي فيتشكل أجسادا في الفضاء القريب من وجهي أرى فيه صورا لماضٍ ولّى .

ألا ترى فيه صور المستقبل ؟

لن أنجرف لك في هذيانك الذكي الجاذب لخيوط الحديث إلى عوالم أخرى أشد التذاذا وأشد إيلاما. دعني أقول لك إن مسوّغ الدخان هنا تماهٍ عابر في وجدان الفتى اليافع والساكت في هذا المقام تحديدا. هل تعرف سرّ سكوته ؟ هذا الدخان المسافر في المقهى يحوّل الذاكرة إلى صورة ذاك الأب الشارب أصابعه

المتكـررة فـي علـبٍ تتـراوح بـين لـونين لـا أدري لـــم اختارهمـــا تحديـــداً، ولــــا أدرى حتّـــى ، هـــل اللونـــان همـــا مـــن اختـــارا شـــاربهما؟ لـــم أفهـــم . انتظـــر لحظـــة، مالـــك تســـتعجل ؟ كـــان الـــأب يشـــرب سـجائر شـعبية مـن النـوع الـرخيص همـا " أولمبيـــــك الحمـــــراء " أو " أولمبيـــــك الزرقـــاء " ... آه ... هـــذا الـــأزرق اللعـــين الـــذي يشـــبه القـــدر ... لـــا تســـب القـــدر ... لم ألعن القدر ولعنت اللون فقط...

انبـــرى الفتـــى المتوثّـــب مثـــل مـــدرّس يمتلـك الجـواب حـين عجـز التلاميـذ عـن فـك شـفرة اللحظـة. الشـيء الجميـل فـي هــذه الصــورة أننــا لـــا نــذكر ولــو لمــرة واحـــدة ســـافر فيهـــا الـــدخان داخـــل خياشـيمنا ونحـن نمـوت فـي النـوم، ولـو مـــرة واحـــدة ضـــبطناه فيهـــا ونحـــن المشـــاغبون المَكَـــرة فـــي حالـــةِ تلـــبّس الخيـــزران بالـــدخان. كنّـــا نعلـــم أن الـــدخان

جزء من البيت لكنه كان يتوارى دائما عن أنظارنا وكأنه ربيب مرفوض.
لماذا تركزون على موضوعة الدخان ؟
قال الفتى، وهو يدرأ عن نفسه عذابات الحكي البارد: في مستقبِلِ الأيام خرجتُ وأبي إلى مطار محمد الخامس بمدينة الدارالبيضاء، كي أودّعهُ و أمي الراحلين إلى الديار المقدسة. جذبني الدخان من يدي برفق وأبعدني عن الملأ. قال لي: سأعود ان شاء الله من زيارة مقام النبي وكلّي أمل في أن تجلب لي هدية وسآتيك في مقابلها بهدية. قلتُ مطلبك أمر يا أبي. قال : اجلب لي لوحة خشب صقيلة وجيدة كي أعود إلى حفظ كتاب الله. وكان له ذلك. أما هديتي أنا فلم أسأل عنها بعد رجوعه من المشرق. عرفتُ الهدية من سحنة وجهه الصبوح. لقد انقطع عن شرب

الدخان. وكانت رغبتي قديمة جدّا أن ينقطع عن شرب الدخان. أرأيتم كيف يمكن للدخان أن يكون بيت قصيد ؟
قال ... هذا ليس بؤرة حكي حتى ولو كان الفعل نبيلا يرجع المرء في خلاله من حالة العدم إلى حالة الضوء. الدخان الجليل هو الدخان الذي لا نستطيع القبض على تلاوينه. نفث بؤرة جديدة من نَفَسِهِ المفترض، ووضع رجلاً على أخرى ثمّ سوّى جلسته كأنه يتأهب للنوم .
أنت كسول.
نعم ... وأعتز بذلك
كلنا ذلكم الكسول. خاصة في الصباحات الكسولة التي لا تريد أن تنتهي من تثاؤبها اللذيذ
الصباحات أيضا تشرب الدخان.
موضةٌ أم ابتلاء ؟ سأل الرجل الخمسيني مجالسيه بمكر وهو يبتسم

في خيلاء العارف. ثمّ أردف قائلا: المسألة الآن لا تتعلق بقيمة الموضوع بقدر ما تتعلق بوظيفته في نسغ هذا اللقاء. و أكثر من ذلك، في نسغ هذا الوجود الممتد فينا نحن الثلاثة. قال الذي له علم بالكتاب خارج الفلسفة : أنا غير معنِيّ بهذا الوجود، أنسيتم أنني محايد .

الحياد أسطورة. قالها الفتى العشريني في صمت جليل مثل عارف صوفي يمتهن لأول مرّة حكمة العبور.

الورطة الرابعة
كمِ السّاعَةْ ؟

كـــمِ الســـاعة؟ ســـؤالٌ يتكـــرّرُ باســـتمرارٍ عبثـــيٍّ لـــا مقصـــودٍ فـــي أزمنـــةِ الهـــدْرِ لمـــادّة الـــزّمن. وقـــد يكـــون الســـؤالُ بماهيـــةٍ حقيقيـــة إن صـــدرَ مـــن كـــائنٍ مُفعـــمٍ بالأنشِـطةِ و الأعمـالِ حتّـى درجـةٍ لـا يجـد فيهـا وقتـاً كـي يفـرك أم رأسـه، كمـا تقـول المسـكوكةُ اللّهجيـةُ المغربيـة الماتحـةُ صِـدْقَها مـن الوجـدان الشـعبي. وقـد يكـونُ السـؤالُ بلـا ماهيـة إذا صـدر

مـن مُسْـترْخٍ علـى أرائـكِ الانتظـارِ للّـذي يـأتي و لـا يـأتي، و هـو يمـارسُ رياضَـة الخـواء علـى طاولـاتِ النـردِ و الـورق أو مـا شـابه، أو يمـارس فتنـةَ الفـراغِ فـي مقـاهٍ أفـرغَ مـن فضـائياتٍ تبيـعُ الـوهمَ والتّفاهــةَ والرخاصــة لجمهــورٍ يســوِّرُ معصَـمَهُ بـأنواعِ السـاعات الثمينـة، فيمـا الـرخيصُ عنـده هـو الوقـتُ الّـذي لـا ذنـبَ له و هو المسؤول عنه باستمرار.

قالَهـا صـاحِبي و هـو ينغـز دابّتـهُ يحثّهـا علـى المسـير، ظنّـاً منـه أن الوقـت قـد تـأخر عنـه ليقضِـيَ مآربَـه هنـاكَ حيـث يسـير. سـألتُهُ عـن سـببٍ واحـدٍ جعلـهُ يُقْحِمنـي فـي مقالتِـه الخارجـة مـن فلسـفة الـزمن. و أنـا لـمْ أكُ أنغـز دابّتِـي لـأنني مـن الفئـةِ المسـترخية الّتـي تـؤمن إيمانـاً صـلْباً بشـعار قـديم يتجـدد فينـا مثـل نسـغِ الشـجر. قـالَ: و مـا شـعارُكَ أيهـا المتحـذلق؟ قلـتُ فـي يقـينِ

المنتصـرين: شـعاري لخّصـتْهُ العـرب المسـتعربةُ والعارِبـةُ و المُعرَبَـةُ والمُعْرِبَـةُ فـي عبـارة فاتكـة هـي (كـمْ حاجة قضيناها بترْكِها).
أحسسـتُ بحنـقِ دابّتِـهِ عليـه و هـو يكـرر فعـل النغـز علـى كتفهـا الـأيمن بعـدما أدمـى صـاحبي الكتـف الأيسـر الّـذي انتهـتْ صلاحيةُ نغـزِهِ فـي انتظـارِ تجـدّده بعـد دهـرٍ آتٍ لا مفـر... نظـرتْ إلـيّ بغلتُـهُ بحنُـوٍّ نـادرٍ يختـزنُ إحساسـيْن: واحـد فيـه شـكرٌ لـي لتضـامني اللامشـروط، و ثـانٍ فيـه تشَـفٍّ قريـبٌ مـن حالـةِ الانتقـام مـن فاعـلِ النغْـز. قالـتْ لـي فـي صـبْرٍ يتـاخِمُ لحظـةَ الفرقعـة و الانفجـار: ألـيس لصـاحبكَ قـدرة علـى التفـاوض أو التواصـل حتـى نصـل إلـى حـلٍّ آخـرَ غيـر النغز؟
لـم أصـدّق سـمعي، و ظنَنْتُنِـي مُصـاباً بضـربةِ شـمسٍ خاصـةَ و نحـن نسـير فـي

عزّ الظهيرة إلى السّوقِ البلديّ البعيد من دوارِنا بعشرةِ أميال. لم أكنْ أهلوس أو أحلم في يقظة، أو أتصور استيهاماتٍ سريالية نازحةً من عبث (الميتامورفوز)، كل ما في الأمر أنني سمعتُ البغلة تتكلّمُ معي، و زادَ من يقيني أن بغلي الّذي يُقلِّني على مثْنِه هشّ لها برأسهِ مزكيّاً أطروحَتَها...

قلتُ لصاحِبي في منطِقِ الوقتِ والأزمنة: كم تبقّى لنا من المسير؟ قال: أوَ أنتَ غريبٌ عن الدارِ و الدوارِ والسوقِ البلديّ حتّى تستقصِيَ عن هذا الأمر؟ علمتُ بعد ذلك أنه صَدِئُ البديهةِ و غيرُ مستوعبٍ لسياق اللحظة. فأنا لم أكن أرتجي جواباً بقدر ما كنتُ أُلمِّحُ إلى ضرورةِ الرّفقِ بدابّتِهِ الّتي لا يني عن نغزِها بين الفينةِ والأخرى. و أظنّ صاحبي لم يتمدرسْ في بيئةِ البلاغةِ الّتي تلْقِي بالمفردة

وتقصدُ غير معناها. ثمّ سألتُهُ عن ماهيةِ الإيحاء. قال بغضب: لم أعد أفهمكَ يا صاحِبي... عندئذٍ صمّمتُ قراري أن أنسلخَ من عباءتي المثقّفة حتى لا يُصِيبَني مكرُ الأعصاب.
رميتُ بصرِي شزراً إلى البغلةِ و البغل، فلاحظتُ ضحكتهما الساخرة من مشهدنا في لمزٍ يُنْصِفُني و يدينُ صاحِبي. فاطمأن بالي. لا لتشفٍّ منه و لكنْ لاعتبارٍ آخر جعلني أستغربُ من مقالتِهِ التي صدّرَ بها رحلَتنا و التي لم يتجانس معها في أسئلته البعيدة عن سرعة البداهة.
ساد بيننا صمتٌ ماكرٌ من جهتِنا نحن الأربعة. فهمتُ صمتي و صمت الدّابتيْنِ، و لكنني لم أفهم صمتَ صاحِبي. فبادرتُ إلى إخراجِهِ من سلطانهِ المبهم، و قلت: هل يكفينا نصف يومٍ لقضاء مآرِبنا في السوق؟

ردّ: بل هي ساعة نتبضّعُ فيها ما يلزمُ من خصاصٍ في مواد الغذاء، ثم نعود القهقرى ... قلتُ: و هل تقصد بالساعةِ الزمنَ في تحقيبهِ الدقيق المحدود بحدود التقطيع المعروف، أم تقصد الساعةَ الوجْدانيةَ الّتي قد تقصر إلى ربع الساعة و التي قد تطول إلى غضون اليوم؟... لم يأبَه بطرحِي، ومضى ينغز و ينغز و ينغز و كأنّه ينتقم من مكري على كتف بغلته. لم أشأْ أن أُكهْرِبَ مناخَنا و نحن أصدقاء العمر. فلطّفتُ الجوّ بمكر آخر لم يُدركْ وخزه. أطلقتُ العنانَ لصوتي و غنّيتُ مرتحلاً من غيوانية الصينية إلى رومانسية أهواك و اتمنّى لو أنساك إلى حكاية عايْشة في ثنايا فن الرّاي. قال باستغراب: ما هذا الخليط؟ قلتُ: هو زمن الرحلة يفرضُ برنامجه... ضحك صادقاً وغنّى معي، و لم يدركْ

أنــه أيضــاً ارتحــل هنــا و هنــاك بــل زاد الطــينَ بللاً عنـدما ركـز علـى الحصـباوي و العلـوة فـي تقليـد ماسـخ تمنيـتُ معـه لو سكت.
شـكرتْني بغلتـه لأنـه انشـغل بالغنـاء عـن نغزهـا لمـدّة هـي أشـبه بالهدنـة. قالـت لـي: (اللهـم العمـشُ و لـا العمـى). فـي تقليـبٍ لمسـكوكةٍ دارِجـةٍ مغربيـةٍ نعرفهـا منذ نعومة مفرداتِنا.
أمّـــا بغلـــي فســـمعتُهُ يدنـــدن أغنيـــة "عايْشة". أدركتُ أنهُ يحبّ...
كـمِ السـاعةْ ؟... هـو السـؤال المكـرورُ الّـذي لـا يتغيـر مهمـا انسـلخ الكـائن اليـوم عــن معــادن معصــمه. و هــو الســؤال رغـــم اســـتبدال الزينـــة بالمســـتطيل الـذكي الّـذي حـل محـل السـوارِ. و الـذي جعـل العـين مدركـةً للتوقيـت فـي عبـثٍ لـا يوظّـف الاطّلـاعَ علـى التوقيـت، إن هــي إلــا العــادةُ تزيــدُ فــي اســترخاء

السـائل و المسـؤول و السـؤال، والسـاعة اليدويـة و الإلكترونيـة و سـاعة الحـائط و سـاعة المحطـات و سـاعة البيـغ بـن و... فيمـا السـاعةُ قادمـةٌ لـا محالـة، و قـد أشـرقت أو أبرقـتْ أو أزفـتْ علاماتُهـا. فطـوبى لمـن أعـدّ لهـا العـدّة واستعد.
قلـتُ هـذا الكلـام، فـازورَّ صـاحِبي عـن النغـزِ والـوكزِ لبغلتِـهِ... شـكرتْني البغلـةُ بعينٍ دامِعة، ثم دخلنا السوق.
***

الورطة الخامسة
طقوسُ الدفن

أينَ جسدي؟ و هل أنا في وعيٍ بحضورهِ أم أنا واهمٌ أنْ أكونَ جسدي؟ و ما حدود فهمي و استيعابي لهذا الغشاء المنسوج من لحم و عظم وجلد و أشياء أخرى تبينُ لي وأستوعِبُها مدركاتٍ في حسِّي المباشر؟

لــمَ هــذا الســؤالُ و أنــت النــازحُ مــن عقيـدة الإسـلام؟ سـألنِي صـاحِبي و نحـن نسـيرُ فـي اتّجـاهِ السـوقِ البلـديّ، أنـا علـى بغلي، و هو ممتطٍ بغلته.
قلــتُ فــي يقــين المــؤمن: و هــل يمنــعُ إسلامي في وعْيِي حقّ السؤال؟
قـــال متحاملـــاً: ســـوالك علمـــانيٌّ، والسؤال بدعة .
أفلتَــتْ منــه هــذه العبــارة مثــل ســهمٍ أعــوجَ مرشــوقٍ إلــى صــدري. فمــا كــان منّــي أن أتفـادى الرّميـةَ علـى علمِـي أنهـا لــن تُصــيبَني. و مــا أصــابني فعلــاً وبصـدمة غريبـة هـو عقـل صـاحبي الّـذي يقبعُ في الضباب .

صــمتنا برهــةً نســتمع فيهــا إلــى وقــع الحــافر علــى أرضِ (التّيــرسْ) الرطبــة، ولــم يكــن يشــوبُ هــذا الســماعَ شــيءٌ ســوى سقســقة بعــض العصــافير

الباحثــة عــن لقطهــا فــي أديــمِ تُــرْبٍ غادرتــهُ تــوّاً ماكينــاتُ الحصــاد الأعجميــة. فكّــرتُ أن أُصــوِّبَ لصــاحبي فكرتَــه، ثــمّ أحجمــتُ. وعــوضَ ذلــك مــرّرتُ تصــويبي فــي غلــاف آخــر. اقترحــتُ عليــهِ لتزجيــة زمــنٍ الرحلــة أن نحصــيَ أنــواعَ الطيــور العابثَــة فــي ســمائنا القريبــة. استحســن الفكــرة و اطمــأنّ قلبِــي جــدّاً لأســباب كثيــرة، منهــا أن البغلــة المســكينة ستســتمتِعُ بهدْنــةٍ و لــو عــابرة تــرحمُ ظهرَهــا المثقــوب مــن شــدّة و معــاودةِ النغز.

فصــيلة (الجــوش) أكثــر الطيــور، ثــم (تِيبيــبطْ) و ثالثــاً طير(اكْريكْــرْ) و أنــدرها طيــر الســمّان... ســألتُ صــاحبي و هــو فــي غمــرةِ التتبــع للطيــور: هــل تعــي هــذه الكائنــاتُ أجســادَها؟ انطــوتْ عليــه الحيلــةُ لأنــه أبــدى اســتعداداً جميلــاً للتفاعــل. و لــم ينتبــه للكمــين الّــذي

نصبْتُه لعقله كي أستدرجه للمحاورة. قال في يقين المتخصصين في عالم الطيور: الحيوانات لا عقل لها كي تعيَ أجْسادَها. إنها مأمورةٌ. و تستجيبُ لغريزتها في تربيب أجسادها وتنميتها. هذا كلّ ما في الأمر. قلتُ في هدوءِ المتربّص بالهجوم: و هل نشبهُ - نحن البشرَ – الطيورَ في هذا النّزوع؟
و لم يكن سؤالي عن جسدي إلا ثمرة انفعالي بجسدي و تفاعلي. فهل أنا منفصلٌ عنه في حركات وعيِي به أم إنني مندمجٌ فيه؟ و الأمر مختلفٌ جدّاً، لأنني وأنا أعقلُ جسدي فإنني أبني المسافةَ بيني و بينه. فإذا كان جسدي أنا، وأنا جسدي، فَلِمَ لا يمارِسُ هو فعلَ السؤال عن عقلي؟ و إذا كانَ عقلِي مفارِقاً لجسدي فلِمَ وُصِمَ بالحدود فيما عقلي استعصى على الحدود؟

خرجنـــا مـــن صـــميم الفلســـفة و مـــن صــميم الــأرضِ المحصــودة إلــى تخــوم الطريــق المعبّــدة. حينـذاكَ لفـتَ انتِباهَنـا جسـدٌ كلـبٍ دهسـته سـيّارةٌ نكـرةٌ مارسـتْ فـي عمليـةِ دهسِـها كـل الخبـثِ الممكـن و الكــامنِ فــي الإنســانِ الــدّاهس. قــالَ لــي: لِـمَ وصـمتَ هـذا الإنسـانَ مسـبِّبَ الحادِثــةَ بالخبــث؟ قلــت: لأنــه لــم يوقــفْ سـيّارتَهُ كـي يسـتطلعَ خبـر المـدهوسِ إن كـان فيـه قيـدٌ حيـاةٍ فيُسـعِفه... قـال: و مـا أدراكَ أنــه لــم يتوقّــفْ؟ قلــت: لــو توقّــف لتغيّـر مكـان الجسـد المسـجِيّ مـن وسـطِ الطريق إلى جانب الطريق...

ابتسـمتْ بغلتُـه شـامتةً فيمـا بغلـي أنـا، كـان يضـع حـافر رجلـه اليمنـى علـى فمـه يـــواري ضـــحكته الهســـتيرية عـــن نظـــر صـاحبي. وكـان يمشـي فـي هـذه الهنيهـة بثلــاث، و كـــان ســـعيداً بهـــذا الإنجـــاز. ويفخـر لـأنني لـم أنـزعج مـن تبـدّل إيقـاع

المشـــيةِ و لـــم أتمايَـــلْ فـــي وضـــعيةِ اعْوِجـــاجٍ مـــؤذِنٍ بالسّـــقوطِ، و لـــو قيـــد أنملة.
اقتـــنص صـــاحبي هـــذا المشـــهد الـــذي خـــرج مـــن دائـــرة الغرابـــة إلـــى دوائـــر المـــألوف، حيـــث لـــم يعـــد يحـــرّكُ فينـــا حـــادث دهـــس الحيوانـــات أي شـــعور.
قـــال: مـــا قيمـــة هـــذا الجســـد المطـــروح عبثاً في الطريق؟
أراكَ يـــا صـــاحبي تلمزنـــي بأطـــاريحي عـــن سـؤال الجسـد؟ لـم أفكـر كثيـرا فـي الـرد، و قـد حـال بينـي و بـين ذلـك أن سـمعتُ بغلـــي يهمـــس لبغلتـــه برغبـــة قديمـــة انـدفنتْ فـي وجدانـه. قالـت البغلـةُ: و مـا ذاك يـا بغلـي العزيـز؟ قـال: أتسـاءل منـذ نعومـــةِ حـــوافِرِي لِـــمَ تُتْـــرَكُ عنـــد موتِنـــا للعـــراء يأكلُنـــا الـــزمنُ حتّـــى نتلاشـــى؟ قالـــت: و مـــا البـــديل أيهـــا البغـــلُ المتـذاكي؟ قـال: لِـمَ لا نُـدْفنُ نحـنُ أيضـاً

وبطقـــوسٍ بهيميـــةٍ خاصّـــة؟ قالـــت: أتسـاءلُ معـك كيـف يكـونُ لـون كفننـا، وكيــف ســتكونُ مآتِمُنــا؟ ضــحكا حتــى بـدتْ نواجـذُهما و كتمـتُ ضـحكتي عـن صاحبي.
ســمعتُ و اســتمتعْتُ و لـــم أُبْـــدِ ردّة فعـل، ومضـيْنا صـامتينَ نحـن الأربعـة، إلا من صوت صفائح الحوافر الحديدية توقّـعُ إيقاعاتهـا الرتيبـة علـى الإسـفلت. أدركـتُ فـي آخـر المنعطـف أن صـاحِبِي استغرقَهُ التفكير حتّى نسيَ وخز بغلته المسـكينة. نظـرتِ الْبغلـةُ إلـيّ بعـين دامعــة و شــكرتْني ثــمّ دخلنــا الســوق البلديّ...

الورطة السادسة
سؤال العقرب

كم يسعنا من جهدٍ كي نمحوَ من كينونتنا كلّ الممكناتِ لنُبْقِيَ فقط على عامرِ الاحتمال\ات؟ هذا السؤال أرّقني و قضّ مضجعِي مراراً و أنا في كامل رغبتي أن أغطّ في نومتي بعد سحابة نهارٍ مجهد. كنتُ أغبِطُ صاحِبي و هو يشخرُ على سرير الحطبِ دون إحساسٍ بالزمن .

كنّا قد انتهينا من جمع محصول العام من غلّة القمح و الشّعير. و كنّا نبيتُ الليل في الخلاء، حمايةً لرصيدِ تعَبِنا من اللصوص. كانَ الزمنُ في عمقِ وجودي هذه الليلة عدوّاً يمشقُ سيف الأرق في وجهِي، ويحوّل مُدْرَكي للثواني و الدقائق والساعات إلى دهورٍ من التفكير. قلت لنفسي: إن هي إلا فكرة، فلِمَ هذا الأرق؟ رددتُ: ليس بيدي حيلة، فأنا مؤرّقٌ مختارٌ لأنّ الفكرة الآن نواةٌ وغداً هي مشروع كتاب .

استغْربتُ لفكرةِ الزمن التي تبدو لي الآنَ ماكرةً جدّاً و مستعصية على الحدّ و التحديد و سياجات المفهوم. فما أعيشُهُ أنا دهراً ممتدّاً و طويلاً مُمِضّاً، يعيشهُ صاحبي الغاطُّ في النوم دقائق معدودة. و سيأتيك بالخبرِ

الصباحُ القريب عندما تسأله كيف قضيتَ الليلة؟

أخرجْتُ منْ قِرابي قلماً و قرطاسا، وشرعتُ تحت ضوء شمعةٍ وجوديّةٍ في تدوين تهويماتي اللّذيذة عن الزمن والليل و الوجود و الكينونة. فجأةً لفتَ نظري مرور خنفساء في هزيع هذا الليل، سوداء تفخر بسوادها في مشيتها البطيئة.

و من قال لك إنها بطيئة؟ أنت الآن خارج منطق الكينونة، مادمتَ قد حكمتَ عليها بالبطء بمعيار خطوكَ البشريّ و خطو بغلك و خطوِ بغلةِ صاحبك. و لِمَ لم تتقمّصْ كينونتها كي تعرف هل هي في بداية سرعتها أم في سرعتها النهائية، وهل هي تسير بأمان أم تركض هاربة من خطر محدق؟ و هل و هل و هل...؟

غلَبْتَني أيها الأنا المحاور و المُجادل والمُورّط. و كيف لي بهذا العلم و ما أوتيتُ منهُ إلا\ قليلا\؟ أنت من تجرّأ ونظر إلى الخنفساء و حكم على وضعها في السير. و لو غضَضْتَ الطرف عنها لما أقحمتَ ذاتكَ في هذا السؤال الوجودي. ولكنني جد سعيدٍ بهذه الورطة، فهي على الأقل تمدّني بمادّة دسمةٍ للتحبير والتعبير.

إذن أكتب وجودها في وجودك، واضمم خطوها إلى خطوك، و سترى عجبا .

ضممتُ يراعي إلى صدري و قررتُ النوم مثل صاحبي كي أعيش بقية الزمن خاطفاً مخطوفاً مثله. لكن النعاس فرّ من أجفاني و عاداني وخاصمني. و بينما أنا أهمّ بالتمدد، إذا بي أسمع خشيشَ الهشيم، قلّبتُ مكانَه فضولاً منّي فإذا هي عقربٌ

تتــربص بــيَ الــدوائر. انتــابتني قشــعريةُ خــوف مــن طبيعــة بشـرِيّتي التــي بناهــا تمثّلــي لهـذه الحشـرة و الـذي صـاغهُ أبـي وأمــي و جــدّي و جــدّتي و كــلّ الــذين ذاقــوا وبالَهــا. حملــتُ فــي غيــر تفكيــر نعلــي وهممــتُ بضــربها، فــإذا هــاتفٌ داخلي يمنعُني من ذلك.

تـذكّرتُ مقولـةً قديمـة كـانَ يلوكهـا أهـل الـدوار و أنـا فـي نعومـة أظـافري تقـول (إذا رأيــت الخنفســاء عــابرةً فــاعلم أن العقرب تتعقّبها) ...

هــذا الخبــر القــديمُ صــمّم قــراري أن لــا أقتلهــا. و أن أتمعــن فــي خلقتِهــا و هــي تهيم علـى وجهها باحثـةً عـن شـيءٍ أجهلـه تمــام الجهــل. أفرغــتُ ذهنــي مــن كــل التمثّلــات القديمــة عــن هــذه الحشــرة وصـمّمتُ أن أقرأهـا في وجودِهـا لـا فـي وجــودي، و أن أشـرحها فــي كينونتهــا لــا فــي كينــونتي المبرمجــة. ووجــدت أن

أقرب آلية لفعل و تفعيل ذلك أن أسألها مباشرة دون ليّ أعناق مفرداتها في تأويلاتٍ محتملة. أسعفيني أيتها العقرب بممكنات الاحتمال في صورتك وفي ماهيتك و في هويتك...

قالتْ: أراك تخلص لمقدمتك. و تريد أن تقبض على فائض المعنى، و عامر الاحتمالات من خلالي أنا النكرة في أرض الله الواسعة... و ما الضيرُ في ذلك سيدتي العقرب؟

ها أنت تفكّ أول خيط لكَ في التيه والضياع يا عاقلاً يمتلك القلم والقرطاس. و كيف ذلك يا سيدتي؟ أنا أوضحُ لك: أنت تُخاطِبُني بخطاب الأنثى. و تخاطبني بيقين لأنك كرّرتها مرّتيْن. فما حملك على هذا الحسم والقطع و البتّ في جنسي ونوعي؟

ولِمَ لا أكونُ عقرباً ذكرا؟

أحسســـتُ بالخيبـــة و قـــد ســـقط فـــي يـــدي... فهــذا كــائنٌ لاعاقــل يبــزّ عاقلــا. فســبحان مــن وضــع ســرّه فــي ضِــعاف خلقــه. فكــرتُ فــي أن أســألهُ أســألَها عــن جنســه عــن جنســها فأحجمــتُ حتــى لــا أصــغرَ فــي قرنيْـهِ فــي قرْنيْهــا... ربّــاهْ ! مــا هـــذا العـــذابُ النـــازحُ مـــن تَلَفِـــي فـــي اســتعمال الضّــمائر؟! و هــل مــن مخــرجٍ لــي مــن هــذا المــأزق؟ ســمعَ العقــربُ أو ســـمعتْ مقـــالتي و قـــد همســـتُ بهـــا فقــط، فأدركــتُ أننــي لــا أملــك التأويــل الصـــحيح أو المتـــاخم لكينونـــة العقـــرب والخنفســـاء والبغلـــة و البغـــل. قـــال، قالــتْ: اســألني و أنــا أجيبُــك. قلــتُ: لــا... وشـــكرا لتعاونـــك بفـــتح حـــرف الكـــاف وكســره، و مــا انكســر شــيءٌ ســوى عقلــي الّـــذي عجـــز عـــن اقتحـــام هـــذه الحشـــرة المتناهية في العمق .

استمر العقربُ في تجاهله لوجودي المستكين إلى عبث السؤال، مرّ بجانب صاحبي الّذي لا يسأل و لا يُسأل و لا يتساءل. و أذكر أنني لم أخشَ عليه من غدر العقرب و لم أدرِ لِمَ ... و لكنني تذكّرتُ مع ذلك نظرة العقربِ لي في عتاب يهمس لي أنني عندما فكرتُ في غدرهِ لم أفقه بعدُ كينونته و لم أفقه أيضاً عمق الاحتمال الّذي أبحث عنه في ماهيات الوجود والموجودات...

الورطة السابعة
ثور عائشة

ذاتَ زِيادَةٍ في شحْم المعْلوفِ، كانتْ عائشةُ حريصةً على ترتيبِ مواقِيتِ التنكيلِ الإيجابيّ بالسّائمة السوداء الراقِدة في عتْماتِ الرغْبَة. و كانتْ تترقّبُ خروجَ الضوءِ سميناً مثلَ كيسِ كائنٍ بخيل. لكنّ مسلسلَ النّماءِ تعطّلَ، و تراخى تكْديسُ طبقات الشحْم في شرْط نُزوحِ الدّخيلِ.

ذاك أن الغايــة تبــرّر الوســيلة فــي عــرف القائــل المتجــذر فــي المعرفــة، و فــي عــرف عائشــة المؤرّخــة فــي غيــر وعــيٍ لتاريخهـــا الشخصــــي و الصــــغير مــــع ثــوريْن مــن فصــيلتيْن متباعــدتيْن أشــدّ التباعــــد وتختلفــــان أشــــد الاختلــــاف، لكنهمــا تلتقيــان فــي مشــترك واحــد هــو الســمنة فــي اتجــاهين : واحــدٌ اســتثمارٌ للسوق و ثانٍ استثمارٌ للرغبة.
و حــدث أن زار القريــةَ أحــدهم، نازحــاً مــن الشــمال... كــانَ وســيماً بشُــقْرَة نــادرة، ذَكّــرتْ عائشــة بأفلــام الخمســينات حيــث تقنيــة الــأبيض و الأســود كانــت شــرطَ جماليــة مُلْهِمَــة. و كــأن هــذا الموصــوف و الموســومَ بــالحظوةِ كتلــة مــن الزبــد النقــي البيــاض الخــارج مــن لــبن أشــد بياضــا مــن شــكوةٍ مخضــتها بلديــةٌ داريــةٌ عارفــــة بتفاصــــيل الرغــــوة و الجــــوهر الحليبي ...

جاورَهــا الـــدّخيلُ فـــي عبـــورٍ موســـميّ حتّــى يســتكمِلَ مهمّتَــه الرســمية. و جــرى التيــار بينهمــا فــي انســيابية، مقصــودة ومصـــنوعة مـــن جهتـــه، فيمـــا كانـــت تلقائيــة وبريئــة مــن جهتهــا. ســار المســارُ فــي اتجــاه خطــةِ الغريــب أو نيتــه حتــي يكــون الســرد موضــوعياً ، و فــي غضــونه انشَـــغَلتْ عائشــــة بــــإكرام الـــدّخيل اســتجابة لفطــرة مغرِبيــة تُقْــرِي الضّــيف و لــــو كــــانَ غريبــــا. و انتهـــى القـــريُ باشــتعالٍ مــن حطــبٍ و فــي حطــبٍ واحــدٍ فقط ...

ثـــمّ حـــدثَ أنْ نســـيتْ عائشَـــةُ ســـائمَتها الســوداء دهْــراً، لـأن البــديل أجــدر بالعنايــة والتربيب و الترتيب .

خسّــتِ الدّابّــة الموعــودةُ لســوقٍ مُرْبِحــة فيمــا اكتنــزَ الــدّخيل حتّــى اخْتفــى أنفــه وســط وجنتيْــهِ و بــدا مثــل طفــلٍ يغْــرِي بالتّقبيــل. وكــانَ هــذا يُسْــعِدُ عائشــةَ فيمــا

الثـوْرُ المسـكينُ كـان يتراجـع عـن مشـروع عائشـة المـربح فيحـدث أن يغـبط الثـور غريمَهُ الأشقرَ أو كان أن كاد يحسده .

لـم تـكُ عائشـة تقلـقُ إلا حينـاً بعـد حـينٍ مُتراخيـةٍ فـي الـزمن، حيـث كـان الـدّخيل الأشـقر يختفـي أسْـبوعاً فـي كـل شـهر. وحـدثَ أن سـألتْه عـن سـرّ هـذا الغيـاب المنـتظم. كـان ردّه بسـيطا بعمـقٍ مـاكر، كـان يسـافر إلـى العاصـمة لمصـلحة إداريـة. وأفْحمهـا الـردّ، لأنهـا كانـت تسـمع بـأذن عاشـقة و تبصـر بعـينٍ أعشـق. ولـم يخطـر ببالهـا إلا الخيـر الـوارد مـن هـذا المعشـوق، فكـم عشـقاً أعمـى صـاحبه، وبالأحرى صاحبته...

بعـد حـينٍ، اختفـى الأشـقرُ، و طـال اختفـاؤه و عائشـة لا تصـدق، و تـرفض مـن يتحـدث عـن هـذا الـدخيل بسـوء، وتـرفض الكلام و الملام و النـاس والثـور و كـل شـيءٍ خـرج عـن دائـرة

الأشـــقر، إلـــى أن سُــمِعَ يقينــاً أنــه كــان يرفَـعُ تقـارير دسـمةٍ حـول أحـوال القريـة الحاضـــنة لعبـــوره، و القـــرى المُجـــاورة، إلى قسم المخابرات الشقراء هناك.

و عنــدما اســتفاقت عائشــة مــن نومتهــا العســـلية تـــذكّرت ســـائمتها البريئـــة. توجّهـــتْ مهرولـــةً إلـــى زريبـــة ثورهـــا الأســود. نفـقَ الثـور الأسـودُ فيمـا الثـور الأشــقر راح بســمنته المجانيــة و تلاشــى فـــي المجهـــول و ذاب وأذاب قلبـــاً غـــرّاً قُدَّ من سراب...

الورطة الثامنة
تحليقُ الروح

فـي مكتـب الاسـتنطاق السياسـي، تلقّـى المشـكوكُ فـي نيّتـه صـفعةً ثانيـةً غيـر متوقّعـة علـى خـدّه الأيسـر. و تلقّـى معها شـكلاً مـن أشـكال الإهانـة القاسـية، و التـي سـرعان مـا ذابـتْ فـي غياهـبِ التحويـل القيمـي، المشـروط بمرجعيـة الابتلـاء. فهـو يمتلـك تاريخـا مـن المرجعيـة التـي ربّتـه علـى توقّـع

الامتحان و الاختبار في أي لحظة ومن أي جهة، كل ذلك من منظور الآية وسحرها الربّاني (أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ) سورة العنكبوت الآية 2

احتسب صاحبنا هذه الصفعة لله، واعتبرها أولاً صورة لفتنته الإيجابية القاضية بالانبناء الداخلي، و القادم من مشكاة النبوة... واعتبرها ثانياً شكلاً من أشكال ضريبة الإيمان. ثم ارتمى في حضن الصحابي الجليل (بلال بن رباح) و هو يرزحُ تحتَ عنف الصخرة المعجونة في خمير الموت. فتضاءلتْ بذلك أوجاع الصفعة وتحوّل إحساسه بالألم إلى رجاءٍ كبير في الأمل.

و لمّا كاد فتيل الصبر أن يخمد، ارتمى في صدر يوسف عليه السلام، فوجد في صبره الممضّ حلاوة لا مثيل لها،

ثم قرّر أن يخلع من قاموسه فكرة الألم...
هكذا تحوّل الخدّ إلى صفيحٍ سَديميٍّ أكبر و أقوى من اليد الصّافِعة وصاحبها، فتقزّما في عينيه و اختفى كل إحساسه بآثار التعذيب الجسدي.
ثم انتصر ...
انتصر على كل الفضاء بكلّ تداعياته القريبة و البعيدة، و بكل العنف الممكن الذي يختزنه المشهد. ثمّ اشرأبّ عنقه إلى هناك، و ما أدراك ما هناك، حيث لا يدرِك هذا الهناك مَنْ حَوْله من بيادقَ تنفّذُ في غير وعيٍ، وتنزّل العقوبات في غير إدراك.
وعِوضَ أن يحقد على هذه الأدوات ويقرّر الانتقام منها لاحقاً على شتّى المنابر، حوّل بوصلةَ الاندفاع إلى قرار الإشفاق، فأحس بقوة الروح تعلو على السفاسف. ثمّ ارتقى ...

ارتقــى حتّــى علــا. و لمّــا علــا، شــطّ فــي البعــد، و لمّــا بَعُــدَ، بــدتْ لــهُ ذاتُــهُ فرقــداً، فيمــا بــدا غيْــرُهُ نقطــا ســوداء، ضــئيلة وغايــة فــي التّلاشــي. لــم يهمّــه بعــد ذلــك أن أخــذوا منــه بعــض جســده أو جلّــه أو كلّــه، و لــم يهمّــه أيضــاً أن فقّــروه و ألغــوا ملكيتــه لعقــار أو دار أو مــالٍ بــوار ... وهمَّــهُ الوحيــدُ و الأوحــدُ أن نجــتْ روحــه وحلّقتْ و شطّتْ في التحليق.

ســأله المســتنطق: مــاهي رغبتــك فــي آخــر الــدمع؟ ردّ فــي يقــين: بــل مــا هــي رغبتــك أنــت فــي بدايــة النــزول؟ و لمّــا لــم يفهــم الســطحيُّ خبــر العــارف والعرفــان عالجــه بضــربةٍ قويــة مــن ســوطه المفتــول. اســتغرب لعــدم الاســتجابة للــألم، فيمــا صــاحبنا ابتســم فــي يقــين ورأى روحــه تخــرج منــه و تغــادر هــذا الجسد المهين...

الورطة التاسعة
ورطةُ الجِهاتِ النّائمة

"رَأَيْـتُ الْعَبَـتَ وَ لَـمْ تَضِـقْ يَـدايَ بِسُـكونِ الْجِهـاتِ الْنَّائِمَـةِ. وَ رَأَيْـتُ خَـرائِطَ الْفَـرَحِ تُعِــدُّها بِمَكْــر، ثَعالِــبُ الْوَقْــتِ الْعــابِرِ فاتَّسَـعَتْ بُقَـعُ السَّـفَرِ فـي قـدمِي. و لَمَّـا رُمْــتُ انْتِشـــالَ الْحُقــولِ مِــنْ ضُــباحِ الْكائِنــاتِ اللَّوْلَبِيَّــة فَــرَّتْ مِــنْ أصــابِعي كُـلُّ الـدّالِياتِ. سَـقَطَ الـدَّمْعُ فـي جَيْبِـي الْمُعَلَّـقِ فِـي فَهـارِسِ النِّسْـيانِ، فَتَّشْـتُ فـي قاعِـهِ عَـنْ دُرَيْهِماتٍ أسُـدُّ بِها ثُقـوبَ

الْحُقولِ الْمَسْلوخَة فَلَمْ أَجِدْ رَنيناً، وَوَجَدْتُ بَقايا مَخالِب، وَ نُتْفاتٍ مِنْ زَغَب، وَ حُشاشَةً مِنْ روح، وَ بَعْضَ أحْلام كانتْ دَفِينَة" .

ماذا تَقول أيّها الْمعْقُوفُ في يدِ الكلام؟ وهل أنتَ شاعرٌ فقدَ بوصلةَ البيان أم حاكٍ تاهَ عنهُ غزالُ المَجاز؟

انا الحاكِي و الْمحكِيُّ عنه. و أمّا العبثُ أعلاهُ فبعضُ السّلوك. و أمّا الجهاتُ النّائمَة فبعضُ السّكوت. و أمّا خرائطُ الْفرح فبعضُ الانْفِراجِ في سيماءِ العسْف و الخسْفِ و...
هل أنتَ تشْرَحُ لي؟ و هل بدوْتُ لك جاهلاً بمسارِب الْكلام؟
سيدي... لا تقلق و لا تندفع فليس قصدي أيُّ إهانة أو ما شابه. كلّ ما في الأمرِ أن الرّغبةَ في الكتابة انزاحتْ

نحــو التغمــيضِ الــدّلاليّ بِقصــدٍ يُنــيخُ بــالمحْكِي فــي أرْضِ النّخبــة. و لــ\ أرانِــي جانَبْـــتُ صـــواباً إذْ ضــيّقْتُ أفـــقَ الاســتِقْبال. ألــيسَ مــن حقّــي و أنــا الحاكِي أن أختارَ قُرّائي؟
ســأتركُكَ إلــى نخبَتِــكَ و أغــادِرُ حمــاكَ. ولـــيس مطلوبـــاً منّـــي أن أذعِـــن لهذيانِك...
لك ما تشاء...

قال الحاكي:

و فــي غمْـرةِ انتصــارِ الثّعالِــب علــى نقــاءِ التّــراب، دلفــتُ أنــا المحكِــي عنــهُ إلــى ثقــوبِ البسْــتان. عبــرْتُ شُــعاعَ الثّقــبِ الْوحيــد الــذي نســلتْ منــهُ فصــيلةُ ابــنِ آوى. وجــدتُ المقــاسَ أكْثَــرَ مــن بطنِهــا، فعلمــتُ أن الثعالِــبَ استأْسَــدتْ و تكــوّن أو تكـــوّمَ علـــى صـــدرِها لِبْـــدٌ كثيـــف.

وعلمْتُ أيضاً أن بعض الجهاتِ النّائمة تستيقِظُ في حالةٍ واحدَةٍ عندما تُدرِكُ أن الثعالِبَ في مأزق. فتصنعُ لها وجْهاتٍ أخرى أنسبُ لمواقِيتِها الثعْلِبِيّة.

قالَ الّذي انتدبتْهُ الثّعالِبُ: أعلنُ باسمِ كل الثّعالِبِ أن الأمر لا يعْنِينا، و أن الثّقبَ لم يدْلِفْ منهُ و لا ثعْلبٌ واحِد. و إنها لفرْيةٌ عظيمةٌ ما جاء بها زمان. نحنُ لم نَلجِ البستانَ و لم نسرِقْ غلّته، كما لم نبدّل فرواتِنا أبداً. فابحثوا عن الفاعلِ و لا تذهبوا في تحقيقكم هذا المذهبَ المغلوط والّذي سيودي بكثيرٍ من الثعالِبِ البريئة. و فضلاً عنْ ذلك فشبَعْنا فيما يغمُرْنا من رزقٍ غابويٍّ يكفِينا و الحمدلله على نعمِه .

"رَأَيْتُ الْعَبَثَ ثانِياً وَ لَمْ تَضِقْ يَداي بِسُكونِ الْجِهاتِ الْنَّائِمَةِ. وَ رَأَيْتُ خَرائِطَ

الْفَرَحِ تُعِدُّها بِمَكْر، ذِئابُ الْوَقْتِ الْعابِرِ فَاتَّسَعَتْ بُقَعُ السَّفَرِ في قَدَمَي .وَ لَمَّا رُمْتُ انْتِشالَ الْحُقولِ مِنْ ضُباحِ الْكائِناتِ اللَّوْلَبِيَّة فَرَّتْ مِنْ أصابِعي كُلُّ الدّالِياتِ. سَقَطَ الدَّمْعُ في جَيْبِي الْمُعَلَّقِ في فَهارِسِ النِّسْيانِ، فَتَّشْتُ في قاعِهِ عَنْ دُرَيْهِماتٍ أسُدُّ بِها ثُقوبَ الْحُقولِ الْمَسْلوخَة فَلَمْ أجِدْ رَنيناً، وَوَجَدْتُ بَقايا مَخالِب وَ نُتْفاتٍ مِنْ زَغَب، وَ حُشاشَةً مِنْ روح، وَ بَعْضَ أحْلام كانتْ دَفينَة" .

أهذا أنت ترجعُ بعد أن غادرتَ حكْيِي ووصمته بالتّخبويّ؟ مرحبا بحضورك مهما كان موقفك، فأنا أعتبركَ نُخْبَويّاً بامتياز .
سيدي، كل ما في الأمر أن مسارَ الحكيِ انبعثَ مُشوّقاً فقرّرتُ أن أستمْتِع.

مرحبـا بقلبـك و عقلـك و سـمعك و كـل جنود استساغاتك.
يبـدو أنّ المسـألةَ سـتأخُذُ مجـرىً آخـرَ غيـرَ الـذي خطّطـتْ لـه الجِهـاتُ النّائمـة. و أنّ الثعالِـبَ بمكرِهـا الغريـزيّ أسـقَطتْ كفّـةَ المتلاعِبِين و كسّـرتْ أجنـداتِهِم تكسـيراً سـينجُمُ عنـهُ الكثيـرُ مـن الضّـرر. و لولا صـبْرُ الجهـاتِ و اسـتعانتُها بـالخبراتِ الأجنبيـة والمتخصّصـة و المُكوّنَـة أشـدّ التكـوين لكلّفهـا الأمرُ خيبـاتٍ لا قِبَـلَ لهـا بتجاوُزِها...
هكـذا تحـوّل الـدمعُ فـي مجـراهُ... فمسـحتِ الجهـاتُ النّائمـةُ التّهمَـةَ فـي معشـرِ الـذّئابِ. و ألْصـقَتْها بمكْرِهـا اللّـولبِي. فشـاعَ بـينَ الأنـامِ أن الـذّئابَ دلفـتْ إلـى البسـتانِ وسـرقتْ مـا سـرقتْ و عاثَـتْ فيـه مـا عاثَـتْ ودمّـرتْ وخرّبـتْ و أفسَـدتْ. انطلـتِ الحيلـةُ زمنـاً علـى الإعلـامِ و المثقّفـينَ و بـاقِي الـدهْماء

وســائرِ الأنــامِ. حتّــى أوشــكَ كــلّ ذِئْــبٍ علــى الرحيــلِ مــن البِلـــادِ جـرّاءَ هـــذه الوصمة و هذا الْبلاء.
انبــرى ذِئْــبٌ متقّــفٌ مــن عامّــةِ الــذّئابِ ويبــدو مــن تعــابيرِهِ أنــهُ اشــتغلَ ســابقاً فــي المحامــاة. قــال و العهــدةُ علـــى الـــرواي: لــم نشــغلْ بالَنـــا نحــنُ معشــر الـــذئابِ بالسّـــرِقَة إلـــا لجـــوعٍ اعتـــرضَ بطـــونَ صـــنفِنا أو لخصاصـــة هــــدّدتْ فصـــيلَتنا أو لســـغبٍ شـــديد وضـــعَ انقِراضَــنا فــي ميــزان الموجــودات. و أمّــا اللمْــزُ مــن جهــاتٍ معلومــةٍ أو مجهولَــةٍ بأنّنــا نمثّــلُ متّهمــا أو مُــداناً فــي قفــص الاتّهــامِ أو مــا شــابَه، فـأمرٌ يبعــث علــى الضـحك، لـأن الإشــارةَ واضــحةٌ و أوضــحُ مـن شـمسٍ فـي ظهيـرة. و إنّنـا مـن هـذا المنبـرِ المـوقّر نقـول لـا لكـلّ أفّـاكٍ أثـيم. و نشــجبُ التهمــةَ قبــل الفعــل ، و نــدين مـــن وصـــمنا بـــأدني صـــفة. وليطمـــئنّ

الفاعـل أننـا لـن نـألوَ جهـداً فـي المتابعـةِ القضـائية حتّـى نبـرّئَ سـاحتنا مـن هـذا الذي كان، بفعلٍ فاعل موبوء...
لـم يغمـض لِلْجهـاتِ النائِمـة جفـنٌ و لـا استراحَ لهـا جنـب. و قضـت مواسِـمَ حصـادِ الانتخابـات و الترشـيحات فـي قحـطٍ بـائنٍ ومحـلٍ أبْـين. تجـرّ ذيـولَ هزيمَتِهـا خلفهـا أينمـا حلّـتْ وارتَحلـتْ.
ولمّـا ضـاقَ بهـا الـأمرُ ذِرْعـاً جنّـدتْ للـأمر جيشـاً عرمْرَمـا مـن جنـودِ الشـبكات العنكبوتيـة، تسـتثمرُ الوسـائط الاجتماعيـة فـي التشـهير بالفاعـل الحقيقـيّ الـذي وضـعتْ فيـه ثقَتهـا العميـاءَ وانصـدَمتْ فيـه أشـدّ الصدمات ...
الْصـقَتْ إفْسـاد البسـتانِ لفصـيلةِ الكلاب.

"الـآنَ رَأَيْـتُ الْعَبَـثَ وَ لَـمْ تَضِـقْ يَـدايَ بِسُـكونِ الْجِهـاتِ الْنَّائِمَـةِ. وَ رَأَيْـتُ خَـرائِطَ الْفَـرَحِ تُعِـدُّها بِمَكْر، كِلابُ الْوَقْتِ الْعـابِرِ فَاتَّسَـعَتْ بُقَـعُ السَّـفَرِ فـي قَـدَمَي .وَ لَمَّـا رُمْــتُ انْتِشــالَ الْحُقــولِ مِــنْ ضُبــاحِ الْكائِنــاتِ اللَّوْلَبِيَّــة فَـرَّتْ مِـنْ أصـابِعي كُـلُّ الـدّالياتِ. سَـقَطَ الـدَّمْعُ فـي جَيْبِـي الْمُعَلَّـقِ فِـي فَهـارِسِ النِّسْـيانِ، فَتَّشْـتُ فـي قاعِـهِ عَـنْ دُرَيْهِماتٍ أسُـدُّ بِها ثُقـوبَ الْحُقــولِ الْمَسْــلوخَة فَلَــمْ أجِــدْ رَنينــاً وَوَجَــدْتُ بَقايــا مَخالِــب وَ نُتْفــاتٍ مِــنْ زَغَــب، وَ حُشاشَــةً مِــنْ روح، وَ بَعْــضَ أحْلام كانتْ دَفِينَة" .

سيّدي... و هل الكلابُ صاحبةُ الفعل؟
لـا تتسـرعْ يـا صـديقي. فأنـا أربـأ بـك أن تكون ممّن يجتنون الثمارَ قبل نضجِها.
الحقيقـة يـا سـيدي أنـك شـوّقْتني للنهايـة حتّـى نسـيتُ نفسـي، و وجـدتُني كـذلك

المتفرج على شريط سينمائيٍّ عبر آلية اليوتوب، و وجدتُني كأنني أضغط على سهم التسريع لأحداث الحكاية. والأمر في حقّه و حقيقته يُعاش حكياً و حياةً بتفاصيله الدقيقة. هذا فرقٌ سرديّ ينبغي أن نسجّله في مقامات الحكي المتعددة بين مكتوبٍ ومسموعٍ و مرئيّ...
لا عليك يا صديقي، فالأمر يوشِكُ أن يكون عامّا. فأنا غالباً ما أقع في هذه الرغبة.
في سياقٍ مستضعفٍ لم يستطع كلبٌ واحدٌ ردّ التهمة. و السبب في ذلك مرجعهُ إلى أن الكلابَ لا تحظى بصفة النّدرة. فهذه تلعبُ دوراً في ترجيح كفّة الميزان للثعالبِ و للذّئاب. و أما الكلابُ فشأنها مختلف .
قد يقول قائلٌ مُعترضاً على تعليلنا بأن فصيلة الكلاب من نوع (البيتبول)

أو (الجولـدن) نـادرة. نقـول لـه وبسـرعة الموقنِ مـن دليلـه، إننـا نقصـد بـذلك الكلاب الضّالّة فقـط. جفّتِ الأقلامُ وطُوِيتِ الصحف.

أفحمْتَنـي أيهـا الحـاكي كمـا لـم يفعـل ذلك حـاكٍ مـن قبـل. و إننـي لأشـهد لـك بالبراعـة فـي وصـم الحكـي بالموضوعية. فأين تعلمتَ هذا؟

تعلّمتـه فـي حلقـاتِ أسـواقِ الحـي المحمـدي. دعنـا مـن هـذا، و قـل لـي أيـن وصـلت حكايـة الجهـات النائمـة مـع الكلاب الضّالّة؟

لـم تقـف الكلابُ مكتوفـةَ الأيـدي أمـام هـذا العـار و هـذا الشّـنار. فـانبرتْ علـى بكـرةِ أبيهـا إلـى تفعيـل نقابـةٍ قديمـةٍ للكلابِ كانـتْ قـد جمّـدتْ أنشـطتَها و لـم تُجمّـد أوراقهـا الرسـمية. أعـادت هيكلتهـا بسـرعة برقيـة وانتـدبتْ ناطقيهـا ليبلـوا

بلاء حسناً في صدّ ما هجمتْ به الجهاتُ النّائمة و نقضِ ما حاكتْهُ عبقريتُها الخائبة. لم تلجأ نقابة الكلاب إلى بديع القول و حجيج المرافعة وجميل البيان و قويّ البرهان، و إنما لجأت إلى فعل المقاطعة تنديداً بالإساءة الحاصلة في حقّهم.

سيدي، و ما موضوع المقاطعة التي يمكن أن تكون وازنة و مؤثرة و فاعلة وناجعة؟

صبراً يا صديقي صبرا...

لم أعد أطيق الانتظار يا سيدي... هات ما عندك هات.

حاضر يا سيدي ... إن فعل المقاطعة سلوكٌ حضاري و سلمي لا يقترفه إلا واعٍ بالمسؤولية. وقد أُسْقِطَ في يدِ الجهاتِ أن صدر هذا الفعل من الكلاب. حتّى ظنّتْه قاصمة ظهرِها. وقد ركزت نقابة الكلاب على مقاطعةِ

قرار تسميم الكلاب بنشر الوعي بين صفوفها بمغبّات تناول هذه المواد القاتلة التي تروّج لها الجهات النائمة للتقليص من عدد هذه الكلاب الضالة.

هل أفهم أن الكلاب كانت واعية بحملات التسميم و كانت تغض الطرف عن ذلك؟

نعم، سيدي... بعض الكلاب فقط.

هذا غريب جدّاً.

نعم، غريب و مؤسف و مأساوي.

و لمَ ذلك؟

تواطؤٌ من أجل البقاء في مقابل الإبادة الجماعية.

أكلّ هذا يحدث في بلادنا؟

نعم، و أكثر...

"ها أنا أرى الْعَبَثَ وَ لَمْ تَضِقْ يَداي بِسُكونِ الْجِهاتِ النّائِمَةِ. وَ رَأَيْتُ خَرائِطَ

الْفَـرَحِ تُعِـدُّها بِمَكْـرٍ نـاسُ الْوَقْـتِ الْعـابِرِ، فَاتَّسَـعَتْ بُقَـعُ السَّـفَرِ فـي قَـدَمَي . وَ لَمَّـا رُمْــتُ انْتِشــالَ الْحُقــولِ مِــنْ ضُــباحِ الْكائِنـاتِ اللَّوْلَبِيَّـةِ فَـرَّتْ مِـنْ أصـابِعي كُـلُّ الـدّالِياتِ. سَـقَطَ الـدَّمْعُ فـي جَيْبِـي الْمُعَلَّـقِ فِـي فَهـارِسِ النِّسْـيانِ، فَتَّشْـتُ فـي قاعِـهِ عَـنْ دُرَيْهِماتٍ أسُـدُّ بِهـا ثُقـوبَ الْحُقــولِ الْمَسْــلوخَةَ فَلَــمْ أَجِــدْ رَنينــاً وَوَجَــدْتُ بَقايـا مَخالِــب وَ نُتْفـاتٍ مِــنْ زَغَــب، وَ حُشاشَــةً مِــنْ روح، وَ بَعْــضَ أحْلام كانتْ دَفِينَة" .

سـيدي... أراك حوّلْـتَ الحكـيَ إلـى بنـي البشر.
نعـم، لـأنّ البشـر هـم مـن دلـف إلـى البسـتانِ و سـرقَ البسـتانَ و عـاثَ فـي البسـتان ثـم تـركَ الثّقْـبَ يتّسـع فـي البستان...

الورطة العاشرة
جَبَلٌ أَطْلَسُ

فِـي الْبَـدءِ، كَـانَ الْجَبَـلُ طِفْلـاً، لَكِنَّـهُ ذَاتَ خُرُوجٍ، اِنْفَلَتَ مِنْ قَبْضَةِ الْحَلِيبِ .
قَضَـمَ مِـنْ شَـجَرِ الْحُلْـمِ، فَقَـأَ عُيُـونَ الْأَنْهَـار، ثُـمَّ انْـدَسَّ فِـي سِـلَالِ الْعِنَـبِ وَأَزْهَارِ اللِّيلْيَا .
سَـافَرَ فِـي حِضْـنِ النُّجَيْمَـاتِ، تُشَـيِّعُهُ تَراتِيـلُ سِـرِّيَّة. وَ لَمّـا أَصَـابَ مِـنَ الْمَصَـبَّاتِ بَعْـضَ الـدخانِ مَاتَـتْ فِـي كَفّـهِ الْمَنَافِضُ ...

نَــــزَلَ الْجَبَـــلُ مقهـــوراً يَحْمِـــلُ أسْـــئِلَةً مُنْكَسِرَةً، وَبَعْضَ رَغِيفٍ بَائِت.
دخلَ المَدِينةَ عارياً أو شبهَ عارٍ. لم يجدْ شجراً كي يخسفَ عليهِ من ورقِ التّوت، وكي يوارِيَ سوأةَ نُزوحِه، أو بعضاً منها. فقد اقتلعَ المدنيون كلّ الشجر و عوّضوهُ بمصابيح ماردةٍ على أعمدة حديديّة عملاقة .
ثمّ إن الطفلَ جاع و تضوّر جوعاً حتّى وجد ذاته داخل حاويةِ قمامة كبيرة يفتّش فيها عمّا يشبه الطعام. أخذ من الفضلات ما سدّ به جوعته ثم انصرف ببعض الكبرياء المتبقي، و هو يلتفت يميناً و يساراً خشيةَ أن تضبط تلبُّسَه بالحاويةِ زهرةٌ عوسجٍ أو ريحانةٌ، أو شجرةٌ أرز أو صنوبرةٌ، أو دفلى أو صفصافة، أو خريرُ ماءٍ زلالٍ أو سقسقةُ عصفور... ضحكَ من هذا التمثل العائم في الخيال بعد أن قال

له وعيه الصغير بأن هذه الكائنات لا تدخل فضاء المدينة...و مع ذلك لم يجد تفسيرا لحضورها أو لحضور أطيافها.
يسيرُ دون هدف و دون وجهة. يسير فقط، و يسير، و يمعن في المسير، نكايةً في قرار النزول، و انتقاماً من ذاته التي لم تقرأ القرار قراءة جيّدة، ولم تحسب لهذا التيه حسابا، و لم تستحضر هذا الإخفاق استحضارا. قرّر أن يبكي فأحجم عن ذلك لأن الجبل لا يبكي... قرّر أن يصرخ فارتدّ إليه صوته حسيرا... قرر أن يركض في غير اتجاه فوجد ركبتيه أشبه بمطاط مثقوبٍ لعجلةٍ مُهترئَة...
ثم قرّر مكرهاً أن ينام. و قد نام في أول زقاق معتم و على (كرتونة) تآكلت جنباتها. اندسّ داخلها فيما هي قد استوعبتْ جسده الصغير إلا بعض

قدميه خرجتا عن الإطار. فانطوى على ذاته منكمشاً مثل قنفذ لا شوك على ظهره.
و نام. نام جدّاً. و نامَ غزيراً كأنه ينتقم لذاته التي لم تشبع نوماً منذ أسبوع. نام و لم يدْرِ هل عاشَ أحلاماً أم عاشتْهُ الأحلام؟...
في الصباح، و الشمس تجلّتْ عروساً في ثوبها الشفاف بمحيّاها المشرق دون مساحيق، سمع صوتا ورديا ورؤوماً ينادي:
اصحَ يا ولدي فالظهيرةُ على وشك الدخول. فتح عينيهِ على وجهٍ صبوحٍ لامرأةٍ ستينية، تمدّ إليه صينية فطور و تربت على كتفيه ألا يحزن أو يفزع. وقبل أن يتساءل عن المكان و الزمان و الإنسان قالت السيدة الستينية:
أفطرْ أولاً و سأحكي لك تفاصيل وجودك هنا.

تنـاول كسـرة خبـز مغموسـة فـي بعـض الزبـدة و المربّـى دون أن تغـادر نظراتـه وجههـا الصـبوح، و خـاطره عـامرة بالشـكّ أو بالدهشـة، لـا يـدري منهمـا شـيئاً، سـوى أنـه مصـدومٌ فـي عجـب ... فقـد اخـتلط عليـه الجـوع و التعـب والحيرة حتى نسيَ أي وجدانٍ يُشغّل.

الغرفـة واسـعة و فـراش السـرير راقٍ بـألوان نسـائية لـامرأة تعـيش وحـدها. والبيـت تغمـره موسـيقى خافتـة لطـربٍ أندلسـيّ يبعـث علـى الارتيـاح و علـى الإحساس بأجواءِ عيد الفطر.

و تـأتي مـن هنـاك غيـر بعيـد رائحـة المطـبخ، تغـزو خياشـيمه نكهـة مـرقٍ معطّـر بـراس الحـانوت إعـداداً لوجبـة الغـذاء. ارتاحـت نفسـه بعـض الشـيء، والـبعض الـآخر سـكن فـي الحـذر فـي إمكان المكر الممكن.

حكتْ له كيف أنها كانت في طريقها للتبضع الصباحي فوجدته مرميا داخل كرتونة. فطلبت أحد العاملين في مجال النظافة أن يحمله إلى بيتها. فكان الذي كان.

قالتْ في يقين المؤمنات و في شكّ اليائسات:

اسمع يا ولدي، أنا أعيش وحيدة و لا أدري متى يزورني الموت مادمت مريضة مرضاً مزمناً قد يودي بحياتي في أي لحظة دون استئذان. فهل ترغب في العيش معي، أكرمك وأعلّمك و أعتني بك كأنك ولدي وفلذة كبدي...

كان يهجم على مكونات الصينية كأنه لن يأكل بعد هذا الصباح، أو كأنه يعبئُ في معدته احتياطياً يكفيه مسغبة يوم كامل. ثم استفاق و لعابه يسيل على الكرتونة. مطّط جسده ثم

انصـرف مــن الزقــاق الــذي ضـجّ بالمــارة بعــد أن أركــن الكرتونــة فــي زاويــة ظــنّ أنها مخزن جيدٌ لفراشه الغريب.
تســـــكّع النهـــــارَ كلـــــه فـــــي محطـــــة المســـافرين المــدعوة بـــ(اولــاد زيــان) وهنــاك حــاول أن يعــود إلــى قمّتــه التــي احتضـنته و ربّتــه وعلّمتــه. لكنــه لــم يفلـح.
و فــي المحطّــة تعلّــم أول درس لــه فــي الــدفاع عــن نفســه وانتشــال لقمــة يومــه مــن قبضــة الزمــان فــي شراســة غيــر مشــهودة لــه. و فــي المســاء عــاد إلــى زقاقـــه و وجـــد كرتونتـــه فـــي أمـــان، انســحب داخلهــا ثــم غــطّ فــي نومــة كثيفة.
و فـي الصـباح، وجـد ذاتـه فـي بيـت مـن دور الصّــفيح، تنبعــث مــن جنباتــه رائحــة كريهــة لمرحــاض خــارجي مشــترك، تؤمّــه مــؤخّرات الســاكنة دون انقطــاع. و فــي الــداخل رجــل أربعينـــي، قـــوي الجثمـــان

وأعـور، يتوسـط وجهَـه أنـفٌ غلـيظ تقـف علـى أرنبتـه خالـة كبيـرة أسـاءتْ للوجـه أكثـر ممـا زيّنتـه. يحمـل عصـاً مـن كـاليبتوس منجـورة بمهـارة و مـن كثـرة اسـتعمالها فقـدت لونهـا الأصـلي لتلـبس لـون التـراب. علـم بعـد حـين أنهـا عكـازة لعرَجِـهِ المصـطنع، يتظـاهر بـه أمـام المـارّة اسـتِدْراراً لعطفهـم ثـم لجيـوبهم. وعلـى حصـير مهتـرئٍ تجلـس ثلاثٌ نسـاءٍ وطفلتـان. علـم بحدسـه أنهـا عصـابة متسـوّلين يحترفـون التسـوّل.

قال الرجل الأعور:

وجـدناك مشـرّداً و آوينـاك و نحـن مسـتعدّون أن نـوفر لـك السـكن تنـام فيـه فـي أمـان عـوض نومـة الشـارع، شـريطة أن تشـتغل متسـولاً لصـالحنا، وسنخصـص لـك ربـع الأربـاح التـي تجلبهـا مهاراتـك فـي التسـول والشّـحْت. و إن فكـرت فـي الهـروب فـاعلم أن لـي

عيوناً بعـدد الحصـى فـي هـذه المدينـة الواسـعة، و سـيأتون بـك إلـيّ صـاغراً، وسـأعذبك بهـذه العصـا تعـذيبا... فمـا قولك؟

استفاق على هـذا التهديـد مـذعوراً مبلّلاً بـالعرق. حمـد الله وقـام يقصـد محطّـة (اولاد زيـان) بعـد أن أركـن كرتونتـه فـي زاوية من زقاقهِ محلِّ إقامته.

تعلّـم فـي المحطّـة أن يجلـب بعـض الـدريهمات مـن شـغله الجديـد، حمّـالٌ صـغير لأمتعـة المسـافرين. و هـو يعلـم كـم عـانى مـن أجـل هـذه الوظيفـة التـي يحتكرهـا جماعـة مـن المتسـلّطين والمحتكـرين لقطـاع غيـر نظـاميّ يسـمّونهُ (طالـب امعاشـو). حاصـروه ومنعـوه و ضـربوه وطـردوه. و لمـا تبيّنـوا صـلابته و حرصـه واسـتماتته تركـوه و شـأنه. ثـمّ لقبـوه بــ(الجبلـي العاصي)...

و في الصباح، وجد نفسه بين كمّاشة أربعة رجال أقوياء أشدّاء في فضاء مرأب واسع يبدو أنه مرأب مهجور في ضواحي المدينة. مكتوف الأيدي كان، و بحبل متين خلف ظهره. أجلسوه على دكّةٍ باردة من إسمنت مسلّح ثمّ قالوا له :

أنت محظوظ أننا لم نذبحك و نطعمك للكلاب. و سنكرمك إكراماً إن أبديتَ تعاوناً معنا و استجبت لمطلبنا. أعطنا رقم هاتف أبيك أو وليّ أمرك كي نفاوضه في شأن المبلغ الذي يشتريك به منّا.

لم يصدّق نفسه. و علم أنه مورّط ورطة لم يأتِ بها زمانه و لم يجد بها دهره. فكّر وقدّر ثم قرّر... قرّر أن يفر في أول فرصة تُتاح له. ابدى استعداده للتعاون كي يكسب بعض ودّ هؤلاء الذين لا ودّ لهم. ومن حسن

القدر أن فكّوا قيده لما انطلت عليهم حيلته. ثم إنهم انشغلوا عنه بالاتصال بالرقم الذي زوّدهم به ...
و لمّا التفتوا إليه وجدوه قد تبخّر وذاب في الأثير و كأنه لم يكن...
استفاق مرعوبا يتصفّد عرقاً و حمد الله على نجاته، و قرّر ألا يثق في أحد و ألا يتناول الطعام من يد أحد و أن لا يأمن لأحد.
خرج من زقاقه أو مسكنه في اتجاه محطة (اولاد زيان) ...كسب بعض الرزق الذي لم يكن يكفيه للمغادرة إلى قمة الجبل. ثم قرّر أن يكسب المزيد في غضون يومين إضافيين أو ثلاثة و حتى يضرب عصافير عِدّة بحجر واحد، و منها ابتياع بعض الهدايا لذويه...
...

و في الصباح، وجدوا جثّته باردةً لا حركة فيها و لا نفس. استدعوا الشرطة. أجرت الشرطةُ ترتيباها الإدارية ثمّ حملت جثمانه... لم ينتبه أحدٌ للكرتونة المهترئة، و لا للعرقِ المتصبّبِ فيها، ولا للأحلامِ المسروقة داخِلها...

الورطة الحادية عشرة
ضُمور

رأيْـتُ فِـي الْمنـامِ امْـرأةً جمِيلَـة بأضْـراس مُسَوّسَـة، تفتَـرُّ عـن ابْتِسـاماتٍ أمْكَـرَ مـنْ رغـوة. تتحـرّشُ بِروحِـي. تتـدثّرُ فِـي جلِبـابٍ رمـادِيّ و تُحْصِـي مـا تبَقّـى فـي جُعبَتِـي مـن دقـائِقَ قبْـلَ أنْ يـتمّ الْقَـبْضُ علـى ذاكِرَتِـي مُتلبِّسَـةً بـالنّور. حشَـدَتْ ضِـدّي جحافِـلَ مـنْ علامـاتِ الصّـخبِ، بـألوان متناسـقةٍ فـي تنـاغمٍ مـاكر، نكايـةً فـي

الشّـعرِ الّـذي كنـتُ أحملـهُ فـي داخلـي. وكانــت تـرْقُصُ شـماتَةً و تُغنِّـي احتِفالـاً باخْتِفائِي .

كـانَ الْغـبْنُ سـيّدَ الْموْقِـفِ، و أنـا لـا أجـدُ فـي أحْبـابِي الّـذين كـانوا يتفرّجـون فـي ذُهـولٍ نصـيراً واحـدا، اللّهـم إلـا مطمطـةَ فـمٍ مـن امـرأةٍ واحِـدة أملـى علـيّ حلمـي أنهـا قريبـةٌ مـن دمـي، احْتجّـتِ الْمسـكينةُ فـي صـمتٍ خشـية أن يطالهـا مـا طـالَنِي أو اسـتجابَةً لـإغراءٍ دفـين يسـكن رغبتهـا الغامضـة. ولكنّهـا تـوارتْ عـن المشـهدِ في لمحةِ بصر ثم اختفت كلّياً .

لـم يـذُرْ بِخلْـدي إلـا شـيءٌ واحـد، كـان معـي، أحملـه فـي قلبِـي و أنتشـي بحضـوره الخرافـي. كانـتْ صـورَةً عمْلاقـةً لـامرأةٍ غيّـرتْ وجهـةَ قـوّتي و أطْعمتْنِـي منـذ اللقـاءِ الْأخضـرِ حبّـةً سـحريةً تكـون لِي سنداً على أقواسِ الزمان ...

حمـدتُ الله علـى هـذه المعيـةِ، و أنـا فـي سـياقِ التعـذِيب، تمارسُـه علـيّ أيـادٍ خفيّـة تـتقنُ فـنّ الهـزءِ و الجلْـد... ربتَـتْ المـرأة علـى ذهـولِي بنظـرةٍ بعيـدة يكـادُ القصُـورُ و العجْـزُ يقضْـمانِها قضـما. ألْقَمِنـي ضُـمورُها فـي السـاحةِ رويـداً رويـدا إحساسـا غريبـاً بـالتّخلّي. و فجـأة اختفـتِ الصـورة فـي سـديم الضـباب حتـى تلاشـتْ أو كـادتْ... لـم أكتـرث لسـلطان السـوطِ علـى ظهْـري فـي حـين آلمنـي جـدّاً ضـمورُ الصـورة... آلمنـي جدّا ضمور الصورة...

الورطة الثانية عشرة
ماسح الأحذية

اختــــرت مقعـــدا و حشـــرت نفســـي بـــين الاجســاد. التهمتنــي الأعمــدة ورمــت بــي بـين وطـن وآخـر. و ألقـتْ بعينـي وذهنـي فـــي خارطـــة شاســـعة مـــن الخـــراب والـــدمار، حتـــى ليكـــاد المـــرء أو القـــارئ يحتلـه إحسـاس بـأن العـالم كلـه بـؤرة مـن الهدم المقصود...
لعنـة الجريـدة أنهـا تعطيـك كـل شـيء ولا شيء.

دلــف الــى الــداخل موســوما بــالقهر، يرســله بــين الأجســاد ليقتــنص زبونــا. وكنــت انــا. اختــارتني عينــاه أو قــدره لســت أدري . هــل ترغــب فــي تلميــع حــذائك؟ (تْسـيري ؟) قالهــا بشــكل آلــي قــد يكــون كررهــا عبــر تجوالــه مئــات المرات ...

تركـتُ جريـدتي و أعطيتـه كـل اهتمـامي خشــية أن أمــسّ كرامتــه. كنــت قبلهــا أرفـض ان يمسـح حـذائي أحـد غيـري، لـا أدري لـــمَ عطلــت قنــاعتي و تعاطفــت مـع الرجـل. قبلـت العـرض فتقـدم نحـوي بشيء من المرح :

-مدّ رجليك من فضلك .

خلعــت حــذائي و ســلمته إيــاه بعــد أن وضــعت قــدمايَ المجــوربتين علــى البلـاط البـارد. أخـذ زوج الحـذاء و وضـعه جانبـا ثـم خـاطبني بالتماعـةٍ نـادرة تشـعّ من عينيه :

-لماذا خلعت حذاءك؟
-لأني أحترمك و لا أريد إهانتك
-أنت الآن تهينني عين الإهانة
-ظننت أني فعلت خيرا
-لا بل "جيتي تْكحل ليها عْورتيها. "
-كيف؟
-البس حذاءك حتى لا تزكم انفي.

الورطة الثالثة عشرة
حبلٌ و عمامة

كنــتُ متفرِّجــاً، و هــوَ كــان غارقــاً فــي حصـــاد حبّـــاتِ (البـــي). هـــي لعبـــةُ الـأقراص الزجاجيـة الصـغيرة فـي حجـم الظفـر. تكشـف عـن مهـارات التسـديد والإصـابة لـدى الأطفـال. يُجمِّعـونَ منهـا مـا شـاء لهـم التجميـع فـي تنافسـية صـبْيانية قـد تنتهـي بـالعراك أحيانـا...

كــان صــاحبنا مــاهراً علــى أقرانــه فــي لعبة تصوغها براءة الأطفال .
و هــو فــي غمــرة الانتصــار توقــف كيانــه كلّــه عــن الفــرح، اصــفرّ وجهــه و نشــف ريقــه وارتعــدت فرائصــه. لقــد رأى أبــاه الصــارم قادمــاً وفــي عينيــه شــرر تســتطير منــه العقوبــة و يستشــيط منــه العقــاب في قسوتهما البائنة .
لــم يجــد الطفــل بــدّاً مــن إطلــاق ســاقيه للــريح. فــرّ هاربــا فــي غيــر اتجــاه. أمــا الــأب فقصــد أقــرب دكــان فــي الحومــة، ابتــاع منــه حبلــاً متينــاً مــن حبــال أكيــاس السكّر الكبيــرة. ثــم راح فــي إثــر ولــده فــي يقــين الــأب الهصــور و الصــارم و المربّــي الّــذي لــا يتــركُ فــي تربيــة أبنائــه شــاذّة أو فاذّة...
ولمــــا ألقــــى القــــبض علــــى الضــــنين صــفعه صــفعة مدويــة حتــى انرســمت الكــف علــى الخــد الفتــي. ثــم عقــد الــأب

الحبـل فـي آخـره علـى شـكل مشـنقة. أدخـل الـرأس الصـغير و البـرئ و البـاكي فـي قلبهـا، جـرّ الـأب الحبـل فـي قسـوة حتـى تشـكّل أثـر الجـذب علـى عنـق الطفـل الطـريّ. جـر الوالـد فـي فخـرٍ غريـبٍ ولـدهُ كمـا تجـر الدابـة علـى مـرأى مـن الأطفـال الـذين تحلقـوا حـول المشـهد يصـرخون بـين شـامت ومشـفق وخائف وحانق و...

كـان شـيخٌ جالسـا أمـام بيتـه بعـد صـلاةِ العصـر، يرنـو إلـى الحـدث رنـوَ حكـيم خبـر الزمـان. قـامَ مـن مجلسِـهِ، تقـدم نحـو الـأب الهصـور، خلـع عمامتـه البيضـاء مـن علـى رأسـه، أرسـلها فـي سـمتٍ هـادئ، عقـدها ، وضـعها علـى عنـق الـأب ثم جره كما جر ولده كما تجر الدابة ...

أدرك الـأب المنـدفع الرسـالة. وبسـرعة حكيمـة حـرر ولـده و أرسـله. انفلـت الولـد

مــن المشــهد كمــا ينفلــت عصــفور مــن الأسر في فرحة بريئة عارمة...

الورطة الثالثة عشرة
ليس الذكر كالأنثى

سبقته إلى الوجود بعامين، ولما هلّ على الدنيا عمرت الفرحة البيت حتى لا مساحة من حزن و حتى كادتِ الجدران تنطق بذلك.
قال الأب سنعلمه أحسن تعليم.
قالت الأم سنصنع منه رجل المستقبل. قال الجد سنعيد نسخة عمه الذي مات قبل أن يتم مشروعه الطبي.

قالـت الجـدة سـندخله إلـى التـاريخ مـن أوسع أبوابه.

قال هاتفٌ " وليس الذكر كالأنثى"

لـم يلتفـت أحـد إلـى تلـك التـي كانـت تلعـب دور الـأم مـع دميتهـا. انشـغلوا عنها بولدهم قرة أعينهم. ولما تذكروا:
قالوا سنزوجها أول طارق.
قالوا قبل أن تبلغ الحلم .
قالوا الستر خير للبنت.
قالوا ونحبسها عن الدراسة.

قال هاتفٌ " وليس الذكر كالانثى"

انشغلوا عنها كالعادة...
قال الأب سأغدق عليه مالاً.
قالت الأم سأغدق عليه حناناً.
قالت الجدة خمسة وخميس عليه.

قال الجد صورتي تتكرر.

قال هاتفٌ "وليس الذكر كالانثى"

لم يلتفت أحد إلى تلك التي لا تفارق كتابها. انشغلوا عنها بحبيبهم فارس بيتهم. ولما تذكروا:
قالوا دعوها مع رومنسيتها.
قالوا لاضير إن عانقت الكتاب.
قالوا على الأقل هي قابعة في البيت.
قالوا هي تكفينا شر الأنثى بصمتها.

قال هاتفٌ "وليس الذكر كالانثى"

ثم انشغلوا عنها إلى وليدهم.
قال الأب ضبطته مع رفقة سوء.
قالت الأم وجدت في جيبه ما يشبه النبات.
قالت الجدة هي عين أصابته.

قال الجد اسألوا بنت الجيران .

قال هاتفٌ "وليس الذكر كالانثى "

اشـــترى الـــأب لابنـــه عربـــة. ســـلمه رأس المـــال. زوجـــه مـــن بنـــت الجيـــران. ثـــم انشـــغلوا بـــه شـــغلا أنســـاهم تلـــك التـــي حولـــت كتابهـــا إلـــى شـــهادة عليـــا فـــي صـمت الـأنثى عنـدما تريـد. عندئـذ فقـط استوعبوا ما قال الهاتف.

الورطة الرابعة عشرة
شَحْذُ السِّهَامِ فِي كِتَابِ الْأَيَّامِ

-الْأحَدُ ...

يُضِـيءُ الْأَحَـدُ دَمِـي بِـالْجُنُونِ، قَبْـلَ أَنْ يُـوقِظَنِي وَرْداً غَجَرِيّـاً فِـي سَـدِيمِ الْفَجْـرِ الصَّـامِتِ، مِـنْ أُرْجُوحَـةِ لَذِيـذِ الْوَسَــنِ. يَلُفُّنِـي فِـي عَبَـاءَةِ الِاسْـتِرْخَاءِ الْإِضَـافِيّ، وَ يُعْلِـنُ فِـي وَجْهِـي أَنَّ النَّهَـارَ سَـحابَة، وَأَنَّ الْعَــــرَقَ مَحْظُــــورٌ، وَ أَنَّ الْأَرْقَـــامَ مُلْغَاة...

شَـيْءٌ مِـنْ فَوْضَـى الْأعْضَـاءِ تَعُـومُ فِـي تَهَافُــتِ الْوَقْــتِ وَالْوَقْــتُ يُهَــرْوِلُ فِــي اتِّجَـاهِ الْمُتْعَـةِ المغلّفـة بالسَّـرَابِ. وَ فِـي عُجَالَـةِ الْعَاشِـقِ الْيَـائِسِ، تَـرَاهُ يُقَلِّـصُ مِـنْ نِسْـبَةِ الضّـوْءِ كَأنّـهُ عَلَـى مَوْعِـدٍ خُرافِـيّ مَعَ حَبِيبَةٍ مَجْهُولَة.

-الاِثْنَيْن ...

يَــدْعُو الــاثْنَيْنُ دَمِــي إلَــى الــدُّخُولِ فِــي لَعْنَــةِ الزِّحَــامِ. كُرَيَّــات بَيْضَــاء وَ حَمْــرَاء تَتَنَــازَعْنَ الْمَســافاتِ. و تَــتَعَلّمْنَ الْمُــرُورَ الْمَمْنُــوعَ، مِــنْ تَعَثُّــرِ الاِنْسِــيَابِ إلَــى تَهَجِّــي كــلّ أشــكالِ التَّــوَتّرِ. تَتَفَقَّــدْنَ الْخَطْــوَ، الْتَهَمَــهُ الْــأَمْسُ وامتصّــهُ الضّبابُ. نَسِيَ شَكْلَهُ أَوْ كَاد.

تَـأْتِي الـرُّوحُ، حَكِيمَـةً، تُهَدْهِـدُ جُثَّـةَ الْكَلَـامِ تسْــتَجْدِيهَا قِطَــافَ بَكــارَاتِ الْيَقَظَــةِ والْيَقَظَـةُ عَنْقَاءُ، مَـا زَالَـتْ لَـمْ تُـدْرِكْ رَمَادَ

النَّهَـار. والنَّهَـارُ كَـائِنٌ كَسُـولٌ يَتَثَـاءَبُ فِـي فَنَاجِينَ صَامِتَة، لَا قَاعَ لَها وَ لَا بُنّ.

-الثُّلَاثَاءُ...

يَـدْلِفُ الثُّلَاثَـاءُ إِلَـى دَمِـي ، مِثْـلَ نَشَّـالٍ ظَرِيـفٍ مَـاهِرٍ. يَسْـرِقُ مِنِّـي آخِـرَ حَبَّـةِ رَمَـادٍ، ويُعِيـدُ لِلطَّـائِرِ آخِـرَ رِيشَـةٍ كَـيْ يَسْـتَقِيمَ الْاِشْـتِعَالُ فِـي الْأَجْنِحَـةِ. تَأْخُـذُ الْـأَوْرِدَةُ شَـكْلَ الْـوَرْدَة. تَأْكُـلُ أَكْمَامَها فِـي الْتِهَـامٍ مَازُوشِـيّ، يَسْـتَبِقُ الْخَطْـوَ فِـي غَيْرِ الْتِفَاتٍ، وَ لَا رُجُوع.
الثُّلَاثَـاءُ كَـائِنٌ خَبِيـرٌ بِتَلَاوِينِ مَـا تَبَقّـى فِـي نَسْغِ الْـوَرْدَةِ مِـنْ رُوح، يَرْسُـمُ لَها خُطُـوطَ الطُّـولِ، وَ يَنْسَـى مَلَامِحَ الْعَـرْضِ. يُطَـرّزُ عَلَـى رَأسِـهَا تَسْـرِيحَةً عَصْـرِيّةً لِشَـعَرٍ أَشْعَثَ، قَبْلَ أنْ تُعانِقَ حَبِيبَ اللّقاء.

-الْأَرْبِعَاءُ...

يَتَرَبَّــعُ الْأَرْبِعَــاءُ عَلَــى دَمِــي، فَتــىً مَرْبُــوعَ الْقَــدِّ يَرْشَــحُ جَبِينُــهُ دَبِيبــاً لتَعَــبٍ لَذِيــذٍ. يَقْسِــمُ سُــلَّةَ الْامْتِــدَادِ شَــطْرَيْنِ: شَــطْرٌ لِلْأَعْشَــابِ النَّاشِــفَةِ، فِــي قَــرارِ الِانْسِــحَابِ مِــنْ فَوْضَــى الْخَلَايَــا. وَشَــطْرٌ ثَــانٍ يَسْــتَقْبِلُ احْتِمَالَــاتِ الْأَشْــجَارِ، تَحْبُــلُ بِــالْمَعْنَى، ثَمْــراً أَلَــذّ، ثَمْــراً أَشَــدّ، وَ ثَمْــراً بَعِيــداً عَــنْ كَمَــائِنِ الْقِطَــافِ. زِئْبَقِــيّ الْمَلْمَــسِ، يَنْفَلِــتُ مِــنْ قَبْضَةِ الطَّعْمِ، وَ يَشْكُو الِالْتِذَاذ.

هَــا نَكْهَــةِ الِانْتِظَــارِ تَتَرَقّــبُ سَــجِينَها الْبَــرِئ فِــي خَــرَائِطِ الْعَمَــى كَبُسْــتَانٍ مُشَــمَّعِ الْقُفْــلِ، عَلَــى أزْهَــار غَاضِــبَة تَسْتَعْصِــي عَلى التَّرْوِيضِ.

-الْخَمِيسُ...

لِــدَمِي لَــوْنٌ صَــاخِبٌ، كَمَــا الْخَمِــيسُ رَاكِــضُ الْإِيقَــاعِ فِــي امْتِلَــاءِ الشّــفَاهِ

بِموسِـيقَى الـرّوكْ، يُغْرِينِـي هَـذا الْوَجْـهُ، وَ أكْسِـرُ لَعْنَـةَ الشَّـبَهِ وَ التِّكْـرَارِ. يُـدْخِلُنِي فِـي سِـبَاقٍ غَرِيـبٍ، أُنَـافِسُ ظِلِّـي عَلـى اعْتِلَـاءِ رَأسِ اللَّحَظَـاتِ الْهَارِبَـةِ، تَتْوِيجـاً رَاقِصـاً، يُمْسِـكُ بِثَـدْيِ الْغَزَالَـةِ الْبَرِّيَـةِ. يَهْصِـرُ دَرَّهـا الْمُكْـتَظَّ بِيَـدَيْنِ عَـامِرَتَيْنِ بِالرَّغْبَـةِ، تُوَزِّعَـانِ الْغَمْرَ عَلـى كُلِّ مَـنْ مَـرَّ عَلـى بَطْـنِ رَاحَتَـي، وَ انْتَشَـى فِـي خُطُوطِهَا بِرَقْصَةِ الْعَطاء.

-الْجُمُعَة ...

وَ لَقَـدْ زَارَتْنِـي فِـي عَبَاءَتِهـا الْبَيْضَـاء، تَفْحَـصُ دَمِـي، قَالَـتْ: يَشْـهَدُ مِهْرَجَـانُ الضَّـخِّ الْيَـوْمَ أصْـغَرَ، بَـلْ أسْـرَعَ دَوْرَةٍ فِـي تَـارِيخِ الـرَّكْضِ نَحْـوَ النِّهَايَـاتِ والْبِـدَايَاتِ... لَـيْسَ لَـكَ إلّـا شُـرُودُ الْخَطْـوِ، فَلـا يَلْتَفِـتْ مِنْ مِيَاهِكَ مَاءٌ.

اِمْـضِ إلَـى نَشِـيدِ النَّبْـعِ، لَمْلِـمْ مَـا تَبَقَّـى مِــنْ أَطْيَــافِ الْوَقْــتِ الْعَابِرِ.فَالْوِسَــادَاتُ مَنَاشِفُ سَعِيدَةٌ بِالْغِيَاب.

-السَّبْتُ...

دَمِــي سَــاخِنٌ، دَرَجَــاتٍ فَــوْقَ احْتِمَــالِ الْعَرْبَــدَةِ. رَقِيــقٌ الْمَلْمَــسِ هَــذا الْيَــوْمُ، عِرْبِيــدٌ... جَـرِئٌ عَلَـى تَنُّـورَاتِ الْمَلِيحَـاتِ ومُشَــاكِسٌ، مُتَحَــوِّلٌ و خُنْثَــى غَجَرِيَّــة تَلْــبَسُ فَوْضَــى النَّهْــرِ، تَتَكَحَّــلُ بِسَــوَادِ الْمَغِيــبِ. قِوَامُهَــا قِيثَــارَةٌ تَعْــزِفُ لَحْــنَ التِّكْرَارِ الْأَهْوَجِ، تُمْسِـكُ فِـي يُمْنَاهَـا قَـرَارَ الْهُــرُوبِ إلَــى الْــأَلْوَانِ، وَ فِــي يُسْــرَاهَا فَنَــاجِينَ مَشْــقُوقَة. تَقْــرَأُ فِــي قِيعَانِهَــا قَدَرَ الْأَحَدِ وَالْإِثْنَيْنِ وبَاقِي الرَّنِينِ.

الورطة الخامسة عشرة
لَوْحَةٌ زَيْتِيّةٌ

لَوْحَــةٌ زَيْتِيّــةٌ فِــي آخِــرِ الــرِّوَاقِ، سَــجَّانٌ يَشْـرَبُ مِـنْ أَصَـابِعِهِ انْكِسَـارَ الضَّـوْءِ فِـي رَحِـمِ الْجِـدَار، وَ سَـجِينٌ يَمْـتَصُّ مَـا تَبَقَّـى مِـنَ الضَّــوْءِ فِــي خَيَاشِــيمِهِ الْوَاسِــعَة، مُتَطَلِّعــاً إِلَــى سَــقْفِ الزِّنْزَانَــةِ تَفِـرُّ مِنْـهُ ثَلاثَةُ عَصَافِيرَ فِي اتِّجَاهِ الدّخَان.

كُــوبٌ مِـنْ مَعْـدِنٍ عَلَـاهُ بَعْـضُ الصَّـدَأ، وَمُلْصَــقٌ كَبِيــرٌ بَاهِــتٌ لِمــارْلِينْ مُــونْرو، تَشْرَبُ الْوَقْتَ بِدُونِ نَخْب .

وَ مَـا تَبَقَّـى مِـنْ الْمَشْـهَدِ: ظِلَـالٌ عَمْيَـاءُ،
وَأَشْـيَاء نَـافِرَة نَسِـيَهَا سَـالْفَادُور دَالِـي،
فِي جَيُوبِ الزَّائِرِينَ .

***

محتويات الإضمامة

المحتوى	الصفحة
العتبة	5
اعتقال	8
زنبقة سوداء	18
رصاص و سكر	33
كم الساعة؟	50
طقوس الدفن	58
سؤال العقرب	65
قور عائشة	73
تحليق الروح	78
ورطة الجهات النائمة	82
جبلٌ أطلس	96
ضمور	108
ماسح الأحذية	111

حبلٌ و عمامة	114
ليس الذكر كالأنثى	118
شحذ السهام	122
لوحة زيتية	128

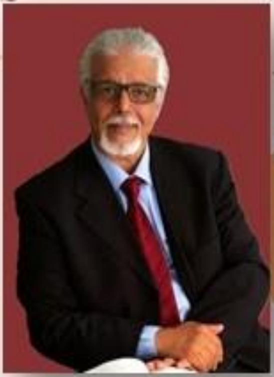

- نورالدين حنيف أبوشامة
- من مواليد مدينة الدارالبيضاء\ المغرب
- عضو في الجمعية الوطنية لصقارة القواسم
- خبير وطني في رياضة الأيكيدو
- مهتمّ بمجال الإبداع و الفنّ التشكيلي
- باحث في التربية و الفكر و الأدب